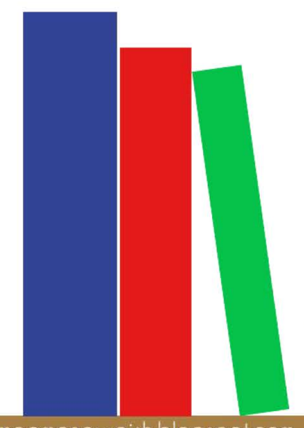


الدكتور محمود البستاني




بسم الله الرحمن الرحيم

أدب فاطمة الزهراء عليها السلام

الدكتور محمود البستاني

البستاني، محمود، ١٣١٦ ـ

أدب فاطمة الزهراء / محمود البستاني. ـ قم. دار الحسنين، ١٣٨٢ش.

١١٠ص.

ISBN 964 - 7549 - 05 - 9

فهرستنويسى پيش از انتشار بر اساس اطلاعات فيپا

كتابنامه به‌صورت زير نويس.

١. فاطمة الزهراءعليها السلام، ٨؟ قبل الهجرة ـ ١١ق. خطبة الزهراءعليها السلام ـ نقد و تفسير. ٢. فاطمة الزهراءعليها السلام، ٨؟ قبل الهجرة ـ ١١ق. خطبتها.

الف. فاطمة الزهراءعليها السلام، ٨؟ قبل الهجرة ـ ١١ق. خطبة الزهراءعليها السلام.

ب. عنوان ج. عنوان: خطبة الزهراءعليها السلام. شرح.

٤ الف ٥ ب / ٢٢ / BP ٢٧ ٢٩٧/٩٧٣

الكتاب: .... أدب فاطمة الزهراءعليها السلام

المؤلّف: .... الدكتور محمود البستاني

الناشر: .... دار الحسنين

الطبعة: .... الأولى ١٤٢٤هـ.ق

عدد النسخ: ٣٠٠٠

شابك: ٩ـ٠٥ـ٧٥٤٩ـ٩٦٤

السعر: .... ٦٥٠٠ ريال

التوزيع: إيران ـ قم ـ بلوار امين ـ ٢٠ مترى امام حسين عليه السلام

مقابل شهردارى منطقه ٤ ـ مسجد امام حسين عليه السلام

آموزشگاه امام حسين عليه السلام

تلفن: ٢٩٣٦٣٨٠ ـ ٠٢٥١ ـ ٠٠٩٨

المقدّمة

يسرّنا أن نقدّم إلى القارئ الكريم: «**أدب فـاطمة الزهـراء**عليها السلام» و هي (كتابة) تتناول أدبيّاً خطبتي الزهراء البتول عليها السلام المـعروفتين و من المؤسف أنّ المجتمع الإسلامي لم يـتوفّر عـلى أمـثال هـذه الكتابة إلّا نشاطات مـعدودة مـمّا يشـير إلى مـظلوميّة الصـدّيقة الطاهرة عليها السلام.

و المؤلّف الفذّ في غنى عن التعريف حيث صدرت عنه جـهود قيّمة أُخرى في الأدب الإسلامي لاغنى للباحث الأدبي عنها، إليك أهمّ عناوينها: «تأريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسـلامي»، «أدب الشريعة الإسلاميّة»، «الإسلام و الأدب»، «البلاغة الجديدة في ضوء المنهج الإسلامي»، «دراسات فنّيّة في قـصص القـرآن»،

«دراسات فنّيّة في التعبير القـرآنـي»، «دراسـات فـنّيّة فـي صـور القرآن»، «التفسير البنائي للقرآن الكريم» ... الخ.

نسأل اللّه تعالى دوام التوفيق في ظلّ أهل البيت عليهم السلام؛ إنّـه وليّ التوفيق.

قم المقدّسة

السـيّد محمّد كاظم الحسيني الحكيم

مؤسّسة تعليم اللغات ـ القسم العربي

خطبة الزهراء عليها السلام

بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله

(الأولى)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

روى عبد اللّه بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام: أنّه لمّا أجمع أبوبكر و عمر على منع فاطمة عليها السلام فدكاً و بلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها و اشتملت بجلبابها و أقبلت في لمة من حفدتها و نساء قومها تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتّى دخلت على أبي بكر و هو في حشد من المهاجرين و الأنصار و غيرهم فنيطت دونها ملاءة فجلست ثمّ أنّت أنّة، أجهش القوم لها بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثمّ أمهلت هنيئة حتّى إذا سكن نشيج القوم و هدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد اللّه و الثناء عليه و الصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام:

«الحمد للّه على ما أنعم، و له الشكر على ما ألهم، و الثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتداها، و سبوغ آلاء أسداها، و تمام نعم أولاها، جمّ عن الإحصاء عددها، و نأى عن الجزاء أمدها، و تفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها.

و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لاشريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، و ضمّن القلوب موصولها، و أنار في التفكّر[1] معقولها، الممتنع عن الأبصار رؤيته، و من الألسن صفته، و من الأوهام كيفيّته. ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، و أنشأها بلااحتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته و ذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، و لافائدة له في تصويرها، إلّا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته، و إظهاراً لقدرته و تعبّداً لبريّته، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثواب على طاعته، و وضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته و حياشة لهم إلى جنّته.

و أشهد أنّ أبي محمّداً عبده و رسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، و بستر الأهاويل مصونة، و بنهاية العدم مقرونة، علماً من اللّه تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث

---

١. الفكر (خ ل).

الدهور، و معرفة بمواقع الأمور. ابتعثه اللّه إتماماً لأمره، و عزيمة على إمضاء حكمه، و إنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فِرَقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، مُنكِرة للّه مع عرفانها، فأنار اللّه بأبي محمّدصلى الله عليه وآله ظلمها، و كشف عن القلوب بُهَمَها، وجلى عن الأبصار غِمَمَها، و قام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، و بصّرهم من العماية، و هداهم إلى الدين القويم، و دعاهم إلى الطريق المستقيم، ثمّ قبضه اللّه إليه قبض رأفة و اختيار، و رغبة وإيثار، فمحمّدصلى الله عليه وآله من تعب هذه الدار في راحة، قد حفّ بالملائكة الأبرار و رضوان الربّ الغفّار، ومجاورة الملك الجبّار، صلّى اللّه على أبي نبيّه[1] و أمينه، و خيرته من الخلق وصفيّه، و السلام عليه و رحمة اللّه و بركاته.

ثمّ التفتت إلى أهل المجلس و قالت:

أنتم عباد اللّه نصب أمره ونهيه، و حملة دينه و وحيه، وأمناء اللّه على أنفسكم، و بلغاؤه إلى الأُمم، زعيم حقّ له فيكم، و عهد قدّمه إليكم، و بقيّة استخلفها عليكم: كتاب اللّه الناطق و القرآن الصادق، و النور الساطع و الضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان اتّباعه، مؤدّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج اللّه

---

١. و أمينه على وحيه و صفيّه، و خيرته من الخلق و رضيّه، (خ ل).

المنوّرة، و عزائمه المفسّرة و محارمه المحذّره، و بيّناته الجالية، و براهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل اللّه الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، و الزكاة تزكية للنفس و نماء في الرزق، و الصيام تثبيتاً للإخلاص، و الحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، و طاعتنا نظاماً للملّة، و إمامتنا أماناً للفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، و الصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة، و برّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منساة في العمر و منماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل و الموازين تغييراً للبخس، و النهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، و ترك السرقة إيجاباً للعصمة، وحرّم اللّه الشرك إخلاصاً له بالربوبيّة. «فاتّقوا اللّه حقّ تقاته، ولاتموتنّ إلّا و أنتم مسلمون»[1]، و أطيعوا اللّه فيما أمركم به و نهاكم عنه، فإنّه «إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء»[2].

ثمّ قالت:

أيّها الناس اعلموا أنّي فاطمة و أبي محمّد صلى الله عليه وآله، أقول عوداً

---

١. آل عمران/١٠٢. ٢. فاطر/٢٨.

وبدءاً، ولاأقول ما أقول غلطاً، و لاأفعل ما أفعل شططاً، «لقد جاءكم رسول عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»[١]. فإن تعزوه و تعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، و أخا ابن عمّي دون رجالكم، و لنعم المعزى إليهصلى الله عليه وآله، فبلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجفّ الأصنام و ينكث الهام، حتّى انهزم الجمع و ولّوا الدبر، وتفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، و نطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، و طاح وشيظ النفاق، و انحلّت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، و نهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم اللّه تبارك وتعالى بمحمّدصلى الله عليه وآله بعد اللتيا و الّتي، و بعد أن مني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، و مردة أهل الكتاب، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللّه، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلاينكفئ حتّى يطأ جناحها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات اللّه،

---

١. توبه/١٢٨.

مجتهداً في أمر اللّه، قريباً من رسول اللّه، سيّداً في أولياء اللّه، مشمّراً ناصحاً مجدّاً كادحاً، لاتأخذه في اللّه لومة لائم، و أنتم في رفاهيّة من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر، و تتوكّفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، و تفرّون من القتال، فلمّا اختار اللّه لنبيّه دار أنبيائه و مأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، و سمل جلباب الدين، و نطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلّين، و هدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، و للغرّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم و وردتم غير مشربكم، هذا و العهد قريب و الكلم رحيب و الجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، «ألا في الفتنة سقطوا، و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين»[1]. فهيهات منكم، وكيف بكم، و أنّى تؤفكون، و كتاب اللّه بين أظهركم، أموره ظاهرة، و أحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، و أوامره واضحة، وقد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟[2] أم بغيره تحكمون؟ «بئس للظالمين بدلاً»[3]، «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً

---

١. توبه/٤٩.   ٢. تدبرون (خ ل).   ٣. كهف/٥٠.

فلن يقبل منه، و هو في الآخرة من الخاسرين»[١]. ثمّ لم تلبثوا إلّا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ، و إطفاء أنوار الدين الجليّ، وإهمال[٢] سنن النبيّ الصفيّ، تشربون حسواً في ارتغاء، و تمشون لأهله وولده في الخمرة و الضرّاء، و نصبر منكم على مثل حزّ المدى، ووخز السنان في الحشا، و أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، «أفحكم الجاهليّة تبغون، «و من أحسن من اللّه حكماً لقوم يوقنون»[٣]، أفلاتعلمون؟ بلى، قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته. أيّها المسلمون! أأُغلب على إرثي؟ يابن أبي قحافة! أفي كتاب اللّه ترث أباك و لاأرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً، أفعلى عمد تركتم كتاب اللّه ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: «و ورث سليمان داوود»[٤]، وقال فيما اقتصّ من خبر زكريّا إذ قال: «فهب لي من لدنك وليّاً يرثني و يرث من آل يعقوب»[٥]، و قال: «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه»[٦] وقال: «يوصيكم اللّه في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين»[٧] و قال: «إن ترك خيراً الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً

---

١. آل عمران/٨٥. ٢. إهماد (خ ل). ٣. المائدة/٥٠.
٤. النمل/١٦. ٥. مريم/٦. ٦. الأنفال/٧٥.
٧. النساء/١١.

على المتّقين»[١] و زعمتم أن لاحظوة لي، ولاأرث من أبي، و لارحم بيننا، أفخصّكم اللّه بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون أنّ أهل ملّتين لايتوارثان؟ أو لست أنا و أبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من أبي و ابن عمّي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحَكَم اللّه، والزعيم محمّد و الموعد القيامة، و عند الساعة يخسر المبطلون، ولاينفعكم إذ تندمون، و «لكلّ نبأ مستقرّ»[٢]، ولسوف تعلمون «من يأتيه عذاب يخزيه، و يحلّ عليه عذاب مقيم»[٣].

ثمّ رمت بطرفها نحو الأنصار، فقالت:

يا معشر النقيبة و أعضاد الملّة و حضنة الإسلام! ما هذه الغميزة في حقّي و السنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده»، سرعان ما أحدثتم و عجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أُحاول، و قوّة على ما أطلب و أُزاول. أتقولون مات محمّد صلى الله عليه وآله؟ فخطب جليل استوسع وهنه، و استنهر فتقه، و انفتق رتقه، واظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر و انتثرت النجوم لمصيبته، و أكدت الآمال، وخشعت الجبال، و أُضيع الحريم، وأُزيلت الحرمة عند مماته، فتلك واللّه النازلة الكبرى و المصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، و لا بائقة

---

١. البقرة/١٨٠. ٢. الأنعام/٦٧. ٣. الزمر/٤٠.

عاجلة، أعلن بها كتاب اللّه جلّ ثناؤه في أفنيتكم، و في ممساكم ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافا و صراخا و تلاوة و ألحانا، ولقبله ما حلّ بأنبياء اللّه ورسله، حكم فصل و قضاء حتم: «و ما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً و سيجزي اللّه الشاكرين»[1]. إيهاً بني قيلة! أأُهضم تراث أبي و أنتم بمرأى منّي و مسمع و منتدى و مجمع، تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، و أنتم ذوو العدد و العدّة و الأداة و القوّة، و عندكم السلاح و الجُنّة، توافيكم الدعوة فلاتجيبون، وتأتيكم الصرخة فلاتغيثون، و أنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير و الصلاح، والنخبة الّتي انتخبت، و الخيرة الّتي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، و تحمّلتم الكدّ و التعب، و ناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لانبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتّى إذا دارت بنا رحى الإسلام، و درّ حلب الإيّام، و خضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، و خمدت نيران الكفر، و هدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنّى حزتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، و نكصتم بعد الأقدام، و أشركتم بعد الإيمان؟ بؤساً لقوم «نكثوا أيمانهم» من بعد عهدهم، «و همّوا بإخراج الرسول و هم

---

١. آل عمران/١٤٤.

بدؤوكم أوّل مرّة، أتخشونهم فاللّه أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين»[١]. ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، و أبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، و خلوتم بالدعة، و نجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم، و دسعتم الّذي تسوّغتم، «فإن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإنّ اللّه لغنيّ حميد»[٢]. ألا و قد قلت ما قلت هذا على معرفة منّي بالخذلة الّتي خامرتكم، و الغدرة الّتي استشعرتها قلوبكم، ولكنّها فيضة النفس، و نفثة الغيظ، و خور القناة، و بثّة الصدر، وتقدمة الحجّة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بغضب الجبّار و شنار الأبد، موصولة بنار اللّه الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة، فبعين اللّه ما تفعلون، «و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون»[٣]، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون».[٤]

---

١. التوبة/١٣. ٢. إبراهيم/٨. ٣. الشعراء/٢٢٧.

٤. الاحتجاج للطبرسي، ص١٣١ – ١٤١.

تبدأ الخطبة بالاستهلال الجـديد، أي المسـتحدث مـع رسـالة الإسلام، من حيث التمهيد للّه تعالى و الشهادتين، فيما يعدّ مثل هذا الاستهلال بـالنسبة إلى فـاطمة الزهـراءعليها‌السلام مـبكّراً. و المـهمّ أنّـه استهلال فنّيّ يربط (من حيث البناء الهندسي للنصّ) بين (موضوع) قد استهدفتهعليها‌السلام، و ذلك من خلال مـقاطع مـتدرّجة تـتصاعد إلى الذروة. و لاعجب، فإنّهاعليها‌السلام قد أفادت من والدهاصلى‌الله‌عليه‌وآله و عليّعليه‌السلام، و قبل ذلك من إلهام اللّه تعالى إيّاها، بصفتها أحـد الأربـعة عشـر معصوماً ممّن ألهمهم اللّه تعالى العصمة (التـعبيريّة) بـالإضافة إلى سائر أنماط العصمة بطبيعة الحال.

الخطبة أو النصّ (كما هو طابع خطب و نصوص الرسـولصلى‌الله‌عليه‌وآله و الإمـــام عـليّعليه‌السلام، تـزخـر بـنحو مـلحوظ بـطابعي (الصـورة) و (الإيقاع)، و هما الطابعان اللذان لايكـادان يـنفكّان مـن مـطلق

النصوص الواردة عن المعصومينعليهم السلام، سواء أكانت خطباً أم رسائل أم أحاديث ... الخ، يضاف بطبيعة الحال إلى عناصر لفظيّة و دلاليّة، فضلاً عن الطابع المتّسم بأهميّة كبيرة و هو طابع البناء المحكم هندسيّاً، أي: التلاحم العضوي بين جزئيّات النصّ و تناميها و تواشجها مع العناصر الإيقاعيّة و الصوريّة بما يواكبها من أدوات التقابل و التماثل و السرد و الحوار و التكرار و التوكيد ... الخ.

النصّ يبدأ على هذا النحو:

القسم الأوّل: الاستهلال (رقم ١)

الحمد للّه على ما أنعم
وله الشكر على ما ألهم
و الثناء بما قدّم
من عموم نعم ابتداها
و سبوغ آلاء أسداها
و تمام نعم والاها
جلّ عن الإحصاء عددها
و نأى عن الجزاء أمدها
و تفاوت عن الإدراك أبدها
و ندبهم لاستزادتها بالشكر لاتّصالها

و استـحـمـد إلى الخلائق بإجزالها

و ثنـى بـالنـدب إلـى أمـثـالـهـا...

هذا هو القسم الأوّل من الاستهلال بالحمد، و يليه القسم الثاني الخاصّ بالشهادتين، و بعد ذلك تواجهنا الأقسام الأخرى المجسّدة للموضوع المستهدَف ...

و لعلّ أوّل ما يمكن ملاحظته هو: البناء الإيقاعي لهذا القسم من النصّ، حيث يتضمّن أربعة مقاطع، كلّ واحد منها يتضمّن ثلاث وحدات لغويّة، كلّ وحدة ينتظمها إيقاع موحّد يختلف عن الآخر ... و من الطبيعي، أنّ هذا النسق الإيقاعي لاتقتصر جماليّته على الوحدة و التنوّع المذكورين في نطاق «الصوت»، بل يتلاحم مع (الدلالة) على نحو ما نقف عنده في قرائتنا و متابعتنا للنصّ.

إنّ الفقرات الأولى من الاستهلال تتميّز باللغة غير «المصوّرة»، و ذلك بسبب واضح هو: وضوح التحميد و الشكر و الشهادتين و من نحوها ممّا ينسجم طرحها مع وضوح الموقف، فالحمد للّه تعالى، و الشكر له تعالى، و الثناء بما قدّم من النعم ... الخ، هذه جميعاً تستوجب طرحاً مباشراً لأنّها مسائل عامّة تفرض على الجميع فاعليّتها و الصدور عنها.

أمّا العنصر التركيبي الّذي يعتمد الاستعارة و الرمز و التشبيه و سائر التركيبات المتوكّئة على عنصر (التخيّل الفنّي) فتستطيع

الموضوعات الدقيقة الّتي يستوعبها المتلقّون للخطبة و المـعنيّون بتفسيرها و تحليلها أن تعتمد على ذلك بسبب كونه موضوعاً خاصّاً تستهدفه الخطبة.

إنّ القسم الأوّل من الاستهلال خاصّ بحمد اللّه تعالى و شكره و الثناء عليه، حيث تتضمّن كلّ فقرة أو وحـدة لغـويّة (الجـملة أو الجمل النحويّة الّتي تتناول جزئيّة دلاليّـة) مـثل (الجـمل الثـلاث الأولى الّتي تتحدّث الأولى منها عن الحمد، و الثانية عـن الشكـر، و الثالثة عن الثناء)... هنا يتعيّن علينا أن نشير ـ أو نكرّر الإشـارة دون أن نملّ من ذلك ـ أنّ النصّ المعصوم، يفترق عن سـواه بـعدم استخدامه المترادفات فـي مـوقف جـزئيّ واحـد،... و لذلك فـإنّ الأهمّيّة الفنّيّة للأسطر الثلاثة هي: أنّ كلّ واحـدة مـن المـفردات (الحمد، الشكر، الثناء) تحمل دلالة تفترق عن أختيها، فالحمد ـ كما تقول المصادر اللغويّة ـ هو مدح بالنطق سواء أكـان ذلك مـرتبطاً بالعلم مثلاً أو الإحسان. و أمّا الشكر فهو عمليّة أعمّ من النـطق أو الفعل أو الخطور القلبي و الذهني، و هو يقتصر على (النعمة)، بينما (الحمد) يعمّ النعمة و سواها كـما قـلنا. و أمّـا الثـناء فـهو المـدح باللسان، و أعمّ من النعمة كذلك، إلّا أنّه يفترق عن (الحمد) بكونه أكثر مضاعفة و كأنّه مشتقّ من التثنية، و هذا ما استخلصناه (ذوقيّاً) حيث نجد أنّ الخطبة الّتي نحن بصددها قد ألمـحت بـالنسبة إلى

النعم و الآلاء أيضاً، بصفة أن اللغويّين فرّقوا بين النعم و الآلاء بأنّ الأخيرة و هي مفرد (ألى) تتضمّن النعمة المضاعفة ... و إذا تجاوزنا ظاهرة عدم استخدام المترادف، و اتّجهنا إلى الدلالة من حيث بنائها (و هو أهمّ ما يتميّز النصّ الأدبي المحكم) أي: الالتحام العضويّ بين أجزاء المقطع من جانب، و التنامي من جانب آخر، نجد أنّ المقطع قد استهلّ بالحمد على مطلق نعم اللّه، و أردفه بالشكر على ما ألهم اللّه تعالى الإنسان من معرفة الظاهرة و الحمد لها، ثمّ مضاعفة ذلك من خلال أنّه تعالى قدّم نعماً قد ابتدأها من دون ثمن نقدّمه، و ليس هذا فحسب، بل ضاعف نعمه تعالى (سبوغ آلاء)، ثمّ تابعها و لم يكتف تعالى بالمضاعفة فحسب، بل بالمتابعة و الاستمراريّة ... و هكذا نجد تصاعد النصّ و تدرّجه و تناميه من ذكر لمطلق النعم، و بمعرفتها، و ثناء على ما ابتدأه تعالى إلى آخر ما لاحظناه ...

طبيعيّاً المقطعان الثالث و الرابع يمضيان على النحو المتقدّم أيضاً، حيث أشار الثالث إلى عدم إحصاء نعمه تعالى، و الرابع على ضرورة شكرها: مع ملاحظة نفس الدقائق الدلاليّة الّتي طبعت المقطعين الأوّل و الثاني، حيث أنّ الثالث أشار إلى عدم حصر العدد من النعم، و امتناع مكافأتها بل عدم إدراك ذلك ... مع ملاحظة الفارق بين الأمد و الأبد، و ملاحظة الفارق بين النأي و التفاوت ...

و هكذا بالنسبة إلى المقطع الرابع فيما لانريد إطالة الوقـوف عـلى الجزئين جميعاً ما دمنا ألفتنا النظر إلى المقطع الأوّل في تفصيلات الدلالة و دقّتها: تركيباً و لغة ... أمّا (صوتيّاً) فيلاحظ أنّ كلّ مقطع من الاستهلال المتقدّم يختصّ بفواصل (قواف) خاصّة عـلى التـرتيب (أنعم، ألهم، قدّم) (ابتداها، أسداها، والاها) (عددها، أمدها، أبدها) (لاتّصالها، بإجزالها، أمثالها) ... و يلاحظ: أنّ هذا التنويع الإيقاعي لاتنفصل صياغته عن التنويع الدلالي، لأنّ المقاطع الأربـعة ـكـما لاحظنا ـ يتناول كلّ منها شرعيّة فكـريّة، تـتّصل أولاهـا بـظاهرة الحمد و الشكر و الثناء، و ثانيتها بـالنعم و الآلاء، و ثـالثتها بـعدم إحصاء ذلك، و رابعتها بضرورة تثمينها ...

القسم الثاني: الاستهلال (رقم٢)

قلنا أنّ الاستهلال الفنّي للخطبة في استحداثـه الجـديد، يـبدأ بظاهرة (التحميد)، ثمّ بظاهرة «الشهادتين» (التوحيد و النبوّة) ...

و أوّل ما يلفت النظر هنا، أنّ الشهادتين تبدأ كلّ مـنهما بـعبارة (مباشرة) و تتلوها العبارات (المصوّرة ـ التركيبيّة) حـيث تسـتهلّ الشهادة الأولى بعبارة (و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لاشريك له)، و تستهلّ الشهادة الثـانية بـعبارة (و أشـهد أنّ أبـي مـحمّداً عـبده و رسوله): عدا ما لاحظناه من التعبير المباشر لهـاتين الشـهادتين:

نجد ما تتلوهما من التـفصيل لدلالة هـاتين الشـهادتين قـد زخـر بالعنصر الصوري بنحو ملحوظ، ... و لهـذا النسـق مـن الإجـمال المباشر أو التفصيل الصوري جماليّته الفائقة دلاليّاً كما سنرى.

و يمكننا أن نعلّل (مباشرة) الشهادتين في إجمالها بأنّ المطلوب هو لفت النظر إلى هذين الركنين من الإسلام حيث يـقدّم الإسـلام عليها، فلابدّ حينئذ من التصريح بهما بوضوح و مباشرة تتناسبان مع الموقف الّذي يصدر المسلمون عنه جميعاً، أي: الإقرار بالشهادتين و الأمر كذلك بالنسبة إلى استقلاليّة العـنصر الإيـقاعي، حـيث أنّ النصّ يخضعهما لقرار موحّد، بل جـعلهما غـير خـاضعين لتـنظيم إيقاعي، بل جعلهما مرسلَين كأيّ فقرة من النثر المرسل.

على أيّة حال، إذا تركنا (إجمال و إرسال) الاستهلال رقـم (٢)، و اتّجهنا إلى تفصيلات الشـهادتين، نـواجـه العـنصرين الصـوري و الإيقاعي بوضوح اتّساقاً مع بناء الخطبة بنحو عام.

و نقف أوّلاً عند الشهادة الأولى (التوحيد) فـنواجـه مـجموعة مقاطع، تبدأ بهذا النحو بعد قولها عليها السلام: «أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له»:

كلمة جعل الإخلاص تأويلها...

و ضمّن القلـوب موصـولها...

و أنـار فـي الفـكـر معقولها...

الممتنع من الأبصار رؤيته...

و من الألسن صفته...

و من الأوهام كيفيّته...

ابتدع الأشياء لا من شئ كان قبلها.

بلا احتذاء أمثلة امتثلها.

كوّنها بقدرته...

و ذرأها بمشيئته...

من غير حاجة منه إلى تكوينها.

و لا فائدة له في تصويرها.

إلّا تثبيتاً لحكمته...

و تنبيهاً على طاعته...

و وضع العقاب عن معصيته...

ذيادة لعباده عن نقمته...

و حياشة لهم إلى جنّته...

هذا هو المقطع أو القسم الخاص بشهادة التوحيد و يتضمّن مجموعات دلاليّة كلّ واحدة منها موزّعة بين ثلاث جُمل (وحدات لغويّة) و اثنتين، كما أنّ اثنتين منها لم تخضعا إلى (فاصلة ـ قافية موحّدة)، بقدر خضوعها إلى فاصلة متجانسة إيقاعيّاً ... طبيعيّاً، أنّ لهذا التفاوت و التوحّد الإيقاعي مسوّغاتهما الفنّيّة و الدلاليّة، كما سنرى.

المهمّ، أن نبدأ بتحليل و تفسير و تقويم هذه المجموعات الاستهلاليّة الخاصّة بالتوحيد من حيث (جماليّة الصور) فيها.

إنّ المجموعة الأولى المؤلّفة من ثلاث وحدات أو جمل أو صور ترتكز على محور هو (الكلمة ـ كلمة التوحيد)، و الكلمة هنا رمز حافل بإثارات متنوّعة، حيث جعل النصّ مفهوم التوحيد (كلمة) و هي صورة (تمثيليّة) مرّشّحة بأكثر من دلالة، فمن جانب هي رمز للتوحيد بصفته ظاهرة روحيّة (عقائديّة)، فتكون بمعنى (فلسفة) أو (موقف فكري)، و من جانب آخر حمّلها النصّ معنىً حسّيّاً هو: الكلمة المنطوقة (أي النطق بعبارة: أشهد أن لا إله إلّا اللّه)، و لذلك نجد أنّ الخطبة ربطت بين النطق و بين التأويل حيث جعلت الإخلاص هو المفسّر لهذه الكلمة المنطوقة و ليس مجرّد أن نطق بها، فإذا أخذنا (التأويل) بمعناه اللغوي الّذي هو إمّا تفسير باطن اللفظ لا ظاهره أو تعدّد معناه، حينئذ فإنّ الصورة المشار إليها تعني: أنّ نطقنا بكلمة (لا إله إلّا اللّه) لا ينفع إلّا في حالة ما إذا اقترن بالإخلاص، و حينئذ يكون (التأويل) هو المفسّر الباطن لما هو ظاهر من اللفظ ... و هذا المعنى الّذي استخلصناه يتوافق مع الصورة التالية لها و هي (و ضمّن القلوب موصولها) حيث أنّ القلب هو المحلّ لمفهوم الإخلاص، لذلك جاءت الصورة الثانية (إنماءً)

عضوياً للصورة الأولى لتوضّح بأنّ توصيل (الإخلاص) إلى معناه المستهدف أو وصله بما يتضمّنه القلب، أو بكلمة ثالثة مفسّرة بوضوح: أنّ القلب هو المتضمّن لمعنى الإخلاص المقترن بكلمة التوحيد. و أمّا الصورة الثالثة فهي تتويج أو تجلية لمعنى الإخلاص في التوحيد، حيث تهبه ـ أي الإخلاص في التوحيد ـ معناه الحقيقي المطلوب، و لذلك استعار لها رمز (النور) يشير بذلك إلى أنّ الدلالة الحقيقيّة للتوحيد قد سُلّطت الإنارة عليها من خلال العمليّات الفكريّة الّتي يمارسها الإنسان في استشفائه لمفهوم التوحيد.

بعد ذلك تتّجه مجموعة جديدة، لتضطلع بعمليّة (إنماء عضويّ) للمجموعة الأولى، حيث أنّ المجموعة الأولى من الصور أوضحت مفهوم التوحيد، أمّا الثانية فتوضّح (صفات) الواحد (اللّه تعالى) ... (الممتنع ...)، مبيّنة أنّ اللّه منزّه عن الرؤية، و أنّ اللسان عاجز عن توصيفه، و أنّ الأوهام (أي العمليّات الذهنيّة الّتي يمارسها الإنسان للوصول إلى إدراك الظاهرة) ممتنعة عن إدراك كيفيّته تعالى ...

بعدها نواجه مجموعات ثلاثة تتألّف كلّ واحدة منها من صورتين (بخلاف ما سبقها و لحقها) عن المجموعات الّتي تضمّ ثلاث صور أو أكثر كما هو ختام المقطع أو القسم: كما سنلاحظ.

و هذه المجموعات تتحدّث عن (إبداعه تعالى) الظاهرة الكونيّة، و تختم بمجموعة تتحدّث عن ظاهرتي الثواب و العقاب ...

أمّا بالنسبة إلى إبداعه تعالى (ابتدع ... الخ) فتشير الخطبة إلى أنّه تعالى قد ابتدع الظواهر من غير مثال سابق، و من غير حاجة إلى ذلك (بصفته تعالى غير محتاج) و إنّما: تمريراً للحكمة الإلٰهيّة فحسب ...

و تثبيت أو تمرير الحكمة تكفّل بها المقطع الأخير ليشير بعد ذلك إلى ما يترتّب على إبداع الظواهر من آثار الثواب و العقاب، تبعاً للحكمة المشار إليها ...

* * *

بعد ذلك نتّجه إلى القسم الخاص بالشهادة الثانية، حيث تقرّر عليها السلام:

[و أشهد أنّ أبي محمّداًصلى الله عليه وآله عبده و رسوله، اختاره و انتجبه قبل أن أرسله، و سمّاه قبل أن اجتباه، و اصطفاه قبل أن ابتعثه.

إذ الخلائق بالغيب مكنونة

و بستر الأهاويل مصونة

و بنهاية العدم مقرونة

علماً من اللّه تعالى بمآيل الأمور

و إحاطة بحوادث الدهور

و معرفة بواقع المقدور

ابتعثه اللّه إتماماً لأمره

و عزيمة على إمضاء حكمه
و إنفاذاً لمقادير حتمه
فرأى الأُمم فِرَقاً في أديانها
عُكّفاً على نيرانها
عابدة لأوثانها
منكرة للّه تعالى عرفانها
فأنار اللّه تعالى بأبي ظُلَمها
و كشف عن القلوب بُهَمَها
و جلى عن الأبصار غِمَمها
و قام في الناس بالهداية
فأنقذهم من الغواية
و بصّرهم من العماية
و هداهم إلى الدين القويم
و دعاهم إلى الصراط المستقيم
ثمّ قبضه اللّه تعالى إليه قبض
رأفة و اختيار
و رغبة و إيثار
فمحمّد صلى الله عليه وآله عن تعب هذه الدار في راحة
قد حفّ بالملائكة الأبرار

و رضوان الربّ الغفّار

و مجاورة الملك الجبّار

صلّى اللّه على أبي نبيّه

و أمينه على وحيه و صفيّه

و خيرته من خلقه و رضيّه

و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته]

هذه الشهادة تتّسم بالطول بالقياس إلى قصر سابقتها، و سبب ذلك ـ كما نحتمل ـ هو: أنّ النبوّة هي المضطلعة برسالة السماء، و هي المعنيّة الآن (أي زمان الخطبة) برسم استمراريّتها من خلال مفهوم الإمامة، حيث أوضح هذا القسم من الخطبة كيفيّة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله نقل المجتمع الجاهلي من الظلمات إلى النور، و هذه النقلة تنكّر لها الموقف الانقلابي الجديد الّذي حدث بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله حيال وصيّته صلى الله عليه وآله للإمام عليّ عليه السلام ...

المهمّ، أنّ الخطبة تتدرّج فنّيّاً في رسمها للظواهر المشار إليها، على نحو ما نتناوله الآن:

يبدأ هذا القسم باستهلال يتحدّث عن شخصيّة محمّد صلى الله عليه وآله و انتخابه رسولاً من اللّه تعالى إلى البشريّة. و الملاحظ أنّ الخطبة قد استخدمت مفردات دقيقة تحوم على معنى الانتخاب و لكنّها تفترق إحداها عن الأخرى ممّا يكشف عن العصمة اللغويّة. فقد

استخدمت هذه العبارات المتشابهه بل المترادفة عند الملاحظ العابر (اختاره، انتجبه، اجتباه، اصطفاه)، مع أنّ كلّ منها دلالة تتميّز عن الأخرى، فالاختيار يعود إلى ما هو خير، و أمّا الاصطفاء فيعود إلى ما هو صفو، أي: الخالص، و الاجتباء هو تطبيع الشيء على ما فطر عليه الإنسان، و الانتجاب يعود إلى ما هو نجيب أي النفيس من الشيء ممّا له قيمة عالية، و هكذا ... و هذه السمات المتنوّعة في شخصيّة النبي صلى الله عليه وآله و إرساله إلى البشريّة مشفوعاً بها يعني: أنّ اللّه تعالى قد رصد فيه السمات الإيجابيّة في شتّى مستوياتها ثمّ أرسله و ابتعثه إلى البشريّة ... و ممّا لاشكّ فيه، أنّ هذا الانتخاب المرصود له صلته بما يُرسَم من المواقف و الأحداث، فضلاً عن أنّ الرسالة ذاتها تتطلّب الانتخاب المذكور بصفته صلى الله عليه وآله مثلاً حَسَناً للآخرين.

هنا، ترسم الخطبة ملمح المجتمع ما قبلِ الإسلام، متوكّئة على العنصرين كليهما: المباشر و الصوري بحسب ما يتطلّبه الموقف، فبالنسبة إلى المجتمع بعامّة تشير الخطبة إلى أنّ اللّه تعالى إمضاء لحكمه بعث محمّداً صلى الله عليه وآله إلى المجتمع المذكور، و هو مجتمع تتحدّد ملامحه على هذا النحو الّذي وجده محمّد صلى الله عليه وآله:

(فرأى الأُمم فِرقاً في أديانها

عكّفاً على نيرانها

عابدة لأوثانها

منكرة للّه تعالى عرفانها

فأنار اللّه تعالى بأبي محمّدصلى الله عليه وآله ظُلَمَها

و كـشـف عــن القلــوب بُـهَـمَـهـا

و جـلــى عــن الأبـصــار غِـمَـمَـهـا

إلى أن تقول:

(ثمّ قبضه اللّه تعالى إليه قبض

رأفـة و اختيـار

و رغبة و إيثار

فمحمّدصلى الله عليه وآله عن تعب هذه الدار في راحة

قد حفّ بالملائكة الأبرار

و رضوان الربّ الغفّــار

و مجاورة الملك الجبّـار

صلّــى اللّـه على أبــي نبيّه

و أمينه على وحيه و صفيّه

و خيرته من خلقه و رضيّه

و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته)...

بـهذا تُـختَتَم الشـهادة النـبويّة، لتـتّجه الخـطبة إلى المـوضوع المستهدَف حيث تلتفتعليها السلام إلى المجلس، و تخاطب القوم، عـلى نحو ما نلاحظه بعد سطور.

لكن قبل متابعة هذا الجانب، نلفت النظر إلى القسم السابق و ما يتضمّنه من دلالات و سمات جماليّة، حيث نلاحظ بوضوح تأرجح ذلك بين صياغة صوريّة و مباشرة بحسب متطلّبات الموقف، كما ألمحناه، فمثلاً تتحدّث عن وفاة النبيّصلى الله عليه وآله بلغة مباشرة تتّسم بالوضوح مثل (ثمّ قبضه اللّه تعالى) و مثل (صلّى اللّه على أبي نبيّه و أمينه على وحيه و صفيّه ... الخ) و كذلك تتحدّث عن المجتمع الجاهلي باللغة ذاتها مثل (عابدة لأوثانها عكّفاً على نيرانها) (منكرة للّه تعالى عرفانها) ... إنّ أمثلة هذه اللغة تتّسم بوضوح سافر، و تعتمد الإيقاع سعة لها، حيث يهبها الإيقاع جماليّة اللغة، بينا نجد ـ في شطر آخر من الخطبة لغة صوريّة بخاصّة عند ما يرتبط الموقف بالتغيير الاجتماعي الملحوظ للمجتمع المذكور من حيث السمات الفكريّة الّتي حظِيَ بها هذا المجتمع من خلال رسالة محمّدصلى الله عليه وآله، فإذا بشرائح المجتمع المشار إليه أنار اللّه تعالى بحمّدصلى الله عليه وآله ظلامها، و كشف عن القلوب إبهامها، و جلى عن الأبصار غمامها ... الخ، فهذا المقطع ـ كما نرى ـ يحفل بلغة صوريّة لها كثافتها الملحوظة و لاشكّ، حيث أنّ طبيعة التغيّر الاجتماعي الهائل (و هو الدخول إلى دين الإسلام) يفرض انتخاب لغة عميقة الدلالة، مكثّفة، مكتنزة بما هو ثرّ و ثريّ من المعاني المختلفة، و هو ما يضطلع به العنصر الصوري المذكور، حيث أنّ الرمز الذاهب إلى أنّ

أباها محمّداً صلى الله عليه وآله قد أنار اللّه تعالى به ظُلَم تلكم الأُمم أو المجتمعات المتمزّقة، الوثنيّة، العابدة للنيران ... الخ، إنّما يعني: أنّه صلى الله عليه وآله أنقذها من الظلمات و دفعها إلى النور، كما أنّ الرمز القائل بأنّه صلى الله عليه وآله: «كشف عن القلوب بُهَمَها»، يعني: أنّه صلى الله عليه وآله فتح قلوبها بعد أن كانت مغلقة لافاعليّة لها على الإدارك الصائب للحقائق، كما أنّ الرمز القائل بأنّه صلى الله عليه وآله: «أبعد عن الأبصار غِمَمها» يعني: أزاح عنها أغطيتها الّتي تحتجزها رؤية النور، أي: نور الإسلام ...

المهمّ، أنّ الخطبة بعد أن ترسم ملامح التغيّر الاجتماعي الجديد، ثمّ وفاة أبيها صلى الله عليه وآله، تتّجه ـ كما قلنا ـ إلى طرح الموضوع الرئيس، متوكّئة على أدوات الفنّ على هذا النحو الّذي نبدأ بتوضيحه الآن:

ـ يبدأ الموضوع المستهدف بمخاطبة القوم (جماعة من المهاجرين و الأنصار) بعد تمهيدها الفنّي لهذا الموضوع، حيث تخاطبهم بأنّكم حماة الدين و أُمناء اللّه تعالى، و بلغاؤه إلى الأُمم، و أنّكم:

(بقيّة استخلفها عليكم

كتاب اللّه الناطق

و القرآن الصادق

و النور الساطع

و الضياء اللامع

بيّنة بصائره

منكشفة سرائره

متجلّية ظواهره

مغتبط به أشياعه

قائد إلى الرضوان اتباعه

مؤدّ إلى النجاة استماعه... الخ)

هذه الضفيرة من الصور و سواها ممّا لم نعرض لها تظلّ في الواقع مقدّمات فنّيّة للموضوع المستهدف، بصفة أنّ الاستشهاد بالقرآن الكريم من خلال ذهابها إلى أنّ هؤلاء هم البقيّة المستخلفة من قِبَل كتاب اللّه تعالى، إنّما هو إلقاء الحجّة عليهم ليحاسبوا أنفسهم حيال المسؤوليّة الملقاة عليهم، بخاصّة أنّها عليها السلام ألمحت إلى هذا الجانب من خلال لغة واضحة (و لكنّها مصوّرة) لتشير بذلك إلى التناسب بين أدلّة القرآن الواضحة في سطوعها و بين أدلّة الحقّ المشروع للإمام عليّ عليه السلام، ... لقد رسمت الخطبة (صوراً) تعتمد ما هو ناطق و صادق و ساطع و لامع و بيّن و منكشف و متجلّ، حيث أنّ النطق و الصدق و الانكشاف و التجلّي و التبيّن و السطوع ... الخ جميعاً هي مفردات لغويّة منتخبة تحوم على دلالة هي: وضوح البرهان مع وضوح الموقف، و مع هذين الوضوحين فإنّ القرار المجحف (بتجاهل استمراريّة الإمامة) لاعذر حياله البتّة ... هنا نلفت نظر

المتلقّي إلى أهمّيّة هذا النمط من رسم السمة القرآنيّة الكريمة، فالقرآن الكريم يقترن بسمات تتناول مختلف الجوانب: العقائديّة و الأخلاقيّة و الاجتماعيّة و الاقتصاديّة و العلميّة ... الخ، إلّا أنّ الخطبة لم تعرض لهذه السمات بل لسمة واحدة هي (وضوح) و (تجلّي) و (انكشاف) و (سطوع) و (نطق) و (صدق) هذا القرآن، لتربط بين وضوح الحقائق المتقدّمة و بين وضوح الموقف الّذي ينبغي ألّا يتجاهله القوم ... و هذا النمط ـ نكرّر ـ يجسّد أحد أشكال البناء الفنّي المحكم من حيث عضويّة الموضوعات و تواشجها بهذا النحو الّذي أوضحناه.

طبيعيّاً، يتعيّن علينا أن نُلقي الإنارة على هذه الصور (التمثيليّة)، لجملة أسباب، منها: أنّ الصور هنا قد انتخبت (تمثيليّة) و ليست استعارة و تشبيهاً، و سنرى أيضاً أنّ الصور اللاحقة تتميّز بالسمة ذاتها، بالقياس إلى ما نلاحظه (في الخطبة الثانية) الّتي تعتمد الاستعارة عنصراً غالباً على مساحة الخطبة. و السرّ الكامن وراء ذلك هو: أنّ الصورة التمثيليّة تعني: تركيبها من ظاهرتين، تجسّد إحداهما عين الثانية أو تكون بمثابة تعريف لها، فعندما نقول مثلاً بأنّ «القرآن نور ساطع» فإنّ الدلالة لتختلف عن قولنا (القرآن كالنور الساطع) أو قولنا (نور القرآن): لأنّ التشبيه و الاستعارة في المثالين الأخيرين يضطلعان بوظيفة غير (التمثيل القائل بأنّ القرآن

نور ساطع) فالتشبيه يشير إلى وجود ظاهرة مشتركة بين القرآن والنور، و الاستعارة تخلع على القرآن طابع النور، بينما التمثيل) يعرّف القرآن بأنّه نور، أي أنّ القرآن هو تجسيد و تمثيل و إدماج و توحّد مع النور لا أنّه له شبهاً أو طابعاً من النور ... و أمّا المسوّغ الفنّي لانتخاب التمثيل ذاته فلأنّ الخطبة بصدد عمليّة (تعريف) للقرآن الكريم من حيث كونه كتاباً ناطقاً و صادقاً و ساطعاً و لامعاً و بيّناً و منكشفاً و متجلّياً ... الخ. و هذه جميعاً تعريفات لحقيقة القرآن، فيتعيّن أن تكون الصور فيها تمثيليّة ليتجانس الموضوع مع طبيعة الصورة الفنّيّة.

المهمّ أنّ الخطبة بعد أن تنتهي من عرض صور القرآن من خلال الصورة (التمثيليّة)، تتّجه إلى نمط آخر من الصور التمثيليّة أيضاً، و لكنّها في هذه الحالة تقدّم (تعريفات أو صوراً تمثيليّة) ليس من حيث (وضوح) البراهين القرآنيّة، بل من حيث تضمّنه لمبادئ اللّه تعالى (الأحكام و العقائد و الأخلاق، مع التشدّد في الأحكام)، و السرّ الفنّي وراء ذلك هو أنّ هذه المفردات المعروضة هي المجسّدة للمبادئ الّتي بشّر بها محمّد صلى الله عليه و آله فيما أنقذت المجتمع، و نقلته من الظلمات إلى النور، حيث تجاهلها هؤلاء القوم الّذين (انقلبوا) على أعقابهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و آله ... و لنقرأ نماذج من الصور التمثيليّة الجديدة:

(... فجعل اللّه الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، و الصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، و الزكاة تزكية للنفس و نماء في الرزق، و الصيام تثبيتاً للإخلاص، و الحجّ تشييداً للدين، و العدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، و إمامتنا أماناً من الفرقة... الخ)

لنلاحظ هذه السلسلة من الصور التمثيليّة، حيث تجسّد (تعريفاً) لمبادئ اللّه تعالى، بدءاً من الإيمان، مروراً بالصلاة، فالزكاة، فالصيام ... الخ، ثمّ (و هذا ما ينبغي لفت الانتباه عليه) موضوع الطاعة و الإمامة حيث هما المجسّدان للموضوع الّذي تستهدفه الزهراء عليها السلام في خطبتها، فالطاعة للعترة الطاهرة (و هي أحد الثقلين) تجسّد نظاماً للملّة، و أمّا الإمامة فهي أمان من الفرقة، ... و من البيّن أنّ ظاهرة النظام تعني: تحقيق التوازن الاجتماعي للملّة (و هو ما عبّرت عنه الزهراء عليها السلام بأنّه الطاعة لأهل البيت عليهم السلام)، و أمّا الإمامة فهي التتويج للعمليّة المذكورة لأنّها أمان من الفرقة أي هي الدعم للتوازن الاجتماعي المذكور، و بالفعل فإنّ تجاهل هذا الجانب أفضى ـ و كما هو ملاحظ من زمن السقيفة و حتّى حياتنا المعاصرة ـ إلى الفرقة كما تنبّأت الزهراء عليها السلام بذلك ... المهمّ، أنّ الخطبة تواصل عرضها لمجموعة المبادئ الإسلاميّة كالأمر بالمعروف، و برّ الوالدين، و القصاص، و الوفاء، ... الخ، حيث تختم ذلك بالعبارة الآتية:

(فاتّقوا اللّه حقّ تقاته، و لاتموتنّ إلّا و أنتم مسلمون، وأطيعوا اللّه فيما أمركم به... الخ)

هذا الختام ـكما هو ملاحظ ـمرتبط عضويّاً بما ذكرتهعليها السلام من أنّ طاعة أهل البيت هي نظامه للملّة و أنّ الإمامة هي أمان من الفرقة و أنّ الأمر بالمعروف أحد مبادئ الدين، و هاهيعليها السلام تمارس هذه المهمّة (الأمر ...) و تطالب بالطاعة ...

إذن: جاءت النهاية لهذه السلسلة من الصور التمثيليّة (نموّاً) عضويّاً لما طرحته السلسلة، و بذلك تدلفعليها السلام من هذا المدخل إلى الموضوع الرئيس المستهدف لتخاطب الجماعة:

(اعلموا أنّي فاطمة، و أبي محمّد، أقول عوداً...)

ماذا تقولعليها السلام عن أبيها محمّدصلى الله عليه وآله ؟

(... أبي دون نسائكم و أخا ابن عمّي دون رجالكم... فبلّغ الرسالةصلى الله عليه وآله دعا... الخ)

طبيعيّاً، قبل أن تقرّر هذا القول، تقرّر:

(لا أقول ما أقول غلطاً، و لا أفعل ما أفعل شططاً)

إنّ هذه الأنماط من الإشارة (نسباً)، و قبلها هذه الأنماط من الإشارة إلى أنّها لاتقول غلطاً و لاتفعل شططاً، أي: إنّ التوكّؤ على أداة التأكيد و هو (تكرار) عدم القول من جانب ثمّ عدم الفعل من جانب آخر، لما هو غلط قولاً أو ما هو شطط فعلاً، أولئك جميعاً

تشكّل أداة فنّيّة لتمرير دلالة خاصّة تستهدفها إرهاصاً لما هو شديد الأهمّيّة، ... يضاف إلى ذلك، أنّ الومضة (النسبيّة) أي قولهاعليها السلام عن أبيهاصلى الله عليه وآله (أخا ابن عمّي دون رجالكم) أي: ربطها بين أبيها و بين الإمامعليه السلام و وسمه بأنّهصلى الله عليه وآله (أخ) لـ(ابن العمّ) لفتة فنّيّة لها دلالتها، ... طبيعيّاً أيضاً، أنّ الإشارة النسبيّة أنّهصلى الله عليه وآله أبوها دون نساء سواها، يحمل الإشارة الفنّيّة لهذه الدلالة، حيث يشتبك (النسب) مع (مفهوم الإمامة): توثيقاً للموقف و ليس للنسب بما هو نسب، أي: توثيقاً لمعرفتها بحقائق ما تقرّره ... المهمّ، أنّ الخطبة تعود ـ كما أشارت ـ إلى الربط بين أبيها محمّدصلى الله عليه وآله و نقله للمجتمع الجاهلي من الظلمات إلى النور، حيث أنّهاعليها السلام تدرك فنّيّاً أنّ تكرار الشيء لايتناسب مع بلاغة الموقف إلّا في سياق خاصّ، و لذلك صرّحت منذ البدء بأنّها (تعود) لتكرّر كلاماً يتّصل بأبيها و بالقوم و هو: إنقاذهصلى الله عليه وآله لمجتمع الانحراف، و لكن في هذا السياق الجديد تتحدّث عن الإنقاذ من خلال الجهاد بعد أن كان الموقف السابق يتحدّث عن الإنقاذ من خلال التلميح العام لمعطيات الرسالة، و لذلك تقول عنهصلى الله عليه وآله و مجاهدته المشركين بأنّه بلّغ رسالة اللّه تعالى:

(صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، واعياً إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة،

يكسّر الأصنام، و ينكت الهام، حتّى انهزم الجمع و ولّى الدبر، وتفرّى الليل عن صبحه، و أسفر الحقّ عن محضه، و نطق زعيم الدين، و فرست شقاشق الشياطين، و طاح وشيظ النفاق، وانحلّت عقدة الكفر و الشقاق...)

ثمّ تربط بين هذا الجهاد و بين الانحراف الّذي كان القوم عليه: **(وكنتم على شفا حفرة من النار: مذقة الشارب، و نهزة الطامع، وقبسة العجلان، و موضع الأقدام، تشربون الطرق، و تقتاتون القد، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم اللّه تبارك و تعالى بأبي...)**

... بعد ذلك تتّجه إلى التعريف بهويّة الأعداء الّذين حاربهم محمّدصلى الله عليه وآله حيث رسمتهم على هذا النحو: (بهم الرجال، ذؤبان العرب، مردة أهل الكتاب) ثمّ رسمت موقفاً جديداً على هذا النحو **(كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللّه تعالى، أو نَجَم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين: قذف أخاه من لهواتها...)**

إلى هنا نقف عند منعطف هذا البناء الفنّي من الخطبة لنلاحظ مستويات الصياغة المدهشة للموقف على المستويات: الدلاليّة و الإيقاعيّة و الصوريّة و البنائيّة ... فماذا نجد؟

ــ من حيث البناء: الخطبة وصلت فنّيّاً بين جهاد أبيهاصلى الله عليه وآله و بين الإمام عليعليه السلام (حيث أنّ الخطبة تستهدف الوصول إلى أحقّيّة

الإمام عليه السلام في قيادة المجتمع) و هذا ما حدث حينما قالت: (قذف أخاه في لهواتها)، ... إنّ أخاه (هو الإمام علي عليه السلام) قد دخل ساحة النصّ (الخطبة) بالنحو الطبيعي جدّاً، حيث ذكرت عليها السلام أنّ عليّاً هو (أخ) النبيّ عبر عبارتها التّي استهلّ بها القسم الجديد ـ أي القسم الثالث بعد قسيمي الشهادتين: التوحيد و النبوّة ـ (تجدوه أبي دون نسائكم، و أخا ابن عمّي دون رجالكم)، و ها هو (الأخ) يدخل إلى الخطبة ثانياً ... متى؟ يدخل إليها بعد سلسلة من الكلام عن الرسول صلى الله عليه وآله فيما بلّغ الرسالة صادعاً بالإنذار، ماثلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثَبَجهم ... الخ، و بعد أن مُني صلى الله عليه وآله بذؤبان العرب، إذا به صلى الله عليه وآله يتدعّم بأخيه لمحاربة هؤلاء المشركين (ذؤبان العرب، و مردة أهل الكتاب ... الخ)، إذا به صلى الله عليه وآله (يقذف أخاه في لهواتها) ـ أي لهوات هذه الحروب ... ـ إذن: لنلاحظ كيف وصلت الخطبة فنّيّاً بين أبيها عبر ممارسته للجهاد، و إنقاذه المجتمع من شفا حفرة من النار، عبر مواجهتها لذؤبان العرب: فيما قذف أخاه عليّاً عليه السلام في لهوات هذه الحروب، كيف وصلت الخطبة بين أبيها و بين الإمام عليه السلام من خلال جهاده عليه السلام، و من ثمّ: من خلال استهدافها أحقّيّة الإمام عليه السلام في القيادة الجديدة لمجتمع الإسلام ...

هذا من حيث البناء الهندسي العام للخطبة في وصلها بين الشخصيّتين: النبي صلى الله عليه وآله و الوصي عليه السلام ... و لكن ماذا من حيث الصياغة الصوريّة و الإيقاعيّة و الدلاليّة؟

ـنكرّر بأنّ (التناص) أي: التضمين بالنصوص القرآنيّة حرفيّاً أو مضموناً في هذا القسم (و سائر الخطبة، و أيضاً خطبتها الثانية كما سنرى) يشكّل ظاهرة ملحوظة بشكل لافت، و هذا مثل قولها عليها السلام (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... الخ) و (داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة) و (تخافون أن يتخطّفكم الناس) و (كلّما أوقدوا للحرب ناراً أطفأها اللّه):

ـيلاحظ أنّ الاستعارة (و ليس التمثيل) هو المسيطر على ساحة النصّ في هذا القسم، مثل (أخرست شقاشق الشياطين) (وشيظ النفاق) (عقدةالكفر) (مذقة الشارب) (قبسة العجلان) (ذؤبان العرب) (قرن الشيطان) ... الخ؛ و السرّ الفنّي وراء ذلك ـكما نحتمل ـ أنّها عليها السلام لاتهدف إلى تقديم (تعريف) بمبادئ القرآن ليتناسب التمثيل و إيّاها، بل عرض المعارك و ممارسة الجهاد ممّا يتطلّب استعارات تخلع على الظاهرة طابعاً من ظاهرة أُخرى، أو الكشف عن الالتواءات أو الانحرافات الّتي تطبع السلوك، و هذا مثل خلع الشقشقة مثلاً على الشياطين أو العقدة على الكفر، أو القرن على الضلال ... الخ.

بالإضافة إلى الاستعادة يجيء الرمز أو الكناية عنصراً صوريّاً آخر في هذا القسم مثل: مواطئ الأقدام، و النفر البيض، و الخماص ... حيث يهدف الرمز إلى الكشف عمّا هو غير محدود

من الاستيحاءات المتنوّعة، أو الإشارة إلى شيء من خلال قناع خاصّ، كالإشارة عن الصداقين بالخماص، و العفيفين بالبيض، أو الكشف عن سمة الذلّ غير المحدود كموطئ الأقدام حيث يكشف الموطئ عن نهاية ما يمكن تصوّره من الذلّ: نظراً لأنّ القَدَم ترمز إلى الدونيّة أو الضعة بأوسع دلالاتها ...

المهمّ: أنّ كلّ من الاستعارة و الرمز و التضمين أو التناص يسهم بنحو فعّال في تجلية الدلالات المعنيّة الّتي تستهدفها الخطبة؛ فمثلاً عندما تستهدف الزهراءعليها السلام أن تصف مجتمع ما قبل الإسلام بأحطّ سماته و منها الذلّ أو الخوف نجدها تتوسّل بالتضمين أو التناص (تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم)، كما تتوسّل بالرمز (موطئ الأقدام)، و تتوسّل بالاستعارة (مذقة الشارب) و هكذا، حيث تفصح هذه الصور: الرمز، التضمين، الاستعارة عن الظاهرة المشار إليها (الذلّ و الخوف) بأوسع دلالات ذلك ...

و الأمر نفسه بالنسبة إلى سائر الظواهر أو السمات، و منها مثلاً: عندما تستهدفعليها السلام سمات النبيّصلى الله عليه وآله تتوسّل بالصور ذاتها (أي الاستعارة و التضمين و التناص) في رسم ذلك مثل (ضارباً ثبجهم) (داعياً إلى سبيل ربّه)، (ماثلاً عن مدرجة المشركين)، حيث أنّ الرسم لهذه السمات تفصح عن أوسع و أشمل الدلالات المفصحة عن السمة، فضرب الثبج مثلاً يعني: إبادة المركز أو الثورة العسكريّة

المجسّدة لقوّة العدوّ، و الميل عن مسلك المشركين يعني: سحق لسننهم، و التبليغ لرسالة اللّه تعالى بالحكمة و الموعظة الحسنة هو الأسلوب الأمثل في سياقات خارجة عن الحلّ العسكري، و هكذا بالنسبة إلى رسمها عليها السلام سمات المنحرفين مثل الصورة الاستعاريّة (ذؤبان العرب) و الصورة التضمينيّة (مردة أهل الكتاب) و الصورة الرمزيّة (فغرت فاغرة من المشركين)، حيث تفصح الصور المتقدّمة عن خبث أنماط العدوّ (ذؤبان)، و أكثرهم التواءً (مردة) و أفتكهم (الحيّة أو السبع)... و هكذا تلعب مستويات الصورة بأنماطها الثلاثة، و تلعب دلالات الموقف بأنماطها المرتبطة بملامح شخصيّة النبيّ صلى الله عليه و آله في جهاده التبليغي و العسكري، و بملامح مجتمعه الجاهلي المرسل إليه: من انحطاطه الثقافي و انهزامه أمام الرسالة: تلعب هذه الدلالات أدوارها الحيّة في تجليّات الموقف بالنحو الّذي لحظناه.

ـإيقاعيّاً: ينبغي أن نضع في الاعتبار أنّ هذا القسم (و مثله سائر الأقسام بطبيعة الحال) لايستخدم صوتاً إلّا و يخضع لنفس الدقّة الدلاليّة في انتخاب الصورة و الحدث و الموقف و موقعها من الخطبة، فنجد أنّ الموقف أو الحدث في وحداته الجزئيّة (الجُملة) أو وحداته الكبرى (مجموعة الجُمل) ينتخب فواصله (نهاية الجملة) مستقلّة أو موحّدة بحسب ما تتطلّبه الدلالة للموقف أو

الحدث ... فمثلاً عند ما تقولعليها السلام (لا أقول غلطاً، و لا أفعل ما أفعل شططاً) إنّما (توحّد) بين الفاصلتين (غلطاً، شططاً) حيث أنّ الموقف يفرض توحّد الفاصلتين المذكورتين نظراً لعدم انفصال القول عن الفعل لدى الزهراءعليها السلام، و لكن عندما تتحدّث عن جهاد النبيّصلى الله عليه وآله في شتّى أساليب تحرّكه (تستقلّ) بفواصل ذلك مثل (فبلّغ الرسالة صادعاً)، ماثلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة) ... فالفواصل هنا (صادعاً، المشركين، ثبجهم، بكظمهم، الحسنة) مستقلّة لاتتوحّد إيقاعيّاً، و ذلك بسبب (تنوّع) حركتهصلى الله عليه وآله فالتبليغ هو غير الميل عن سنن الشرك، حيث أنّ الأوّل عمل قولي، و الثاني عمل قلبي، و هكذا بالنسبة إلى جزئيّات الموقف أو الحدث الأُخرى، ... و لكن عندما تواصل الخطبة صياغتها لهذا الجانب، و تدخل إلى الزاوية العسكريّة تقول (يكسّر الأصنام و ينكث الهام) حيث توجّه الفاصلة (الأصنام، الهام) نظراً لعدم انفصال أحد الحديثين عن الآخر، إنّهما حدثان أوّلاً، و يتماثلان من حيث التهشيم للصنم و لعابده ثانياً، لذلك تتوحّد فاصلتهما ... و هكذا ...

ـ أخيراً: لانغفل عن السمات الدلاليّة أو المعانيّة المرتبطة بأدوات التماثل أو التقابل، أو التكرار ... الخ أو التتابع ... ففي ميدان التتابع مثلاً نواجه هذه السلسلة: (مذقة الشارب، و نهزة الطامع،

و قبسة العجلان، و مواطئ الأقدام) (مهج الرجال، ذؤبـان العـرب، مردة أهل الكتاب) (ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربّه ...)، و في ميدان التقابل (تجدوه أبي دون نسائكم، و أخـا ابـن عمّي دون رجالكم) (كلّما أوقدوا ناراً أطـفأها اللّـه) و داعـياً إلى سبيل ربّه بالحكمة و الموعظة الحسنة، يكسّر الأصنام)، و هكذا...

المهمّ، أنّ المسـتويات المـتقدّمة مـن الصـياغة لهـا جـماليّتها المستقلّة من جانب، و البنائيّة المرتبطة بتلاحم عناصر الخطبة من جانب آخر،... و تتصاعد هذه الجماليّة حينما نتابع النصّ من أهمّ منعطف تتّجه إليه من حيث المبنى الهندسي لها و من حيث الدلالة الّتي تستهدفها، و هذا المنعطف هو (كما سبق أن أشرنا إليه عـابراً) وصلها عليها السلام بين جهاد أبيها صلى الله عليه و آله و بين استعانته بعليّ عليه السلام فـي ذلك، حيث أشارت عليها السلام إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله عندما تفغر فاغرة المشـركين: (يقذف أخاه لهواتها ... الخ)، فبهذا الوصل بين الشخصيّتين: بخاصّة أنّها عليها السلام وحّدت بين عبارة (الأخ) المشارك الآن في الجهاد (و هو الإمام عليه السلام) و بين (الأخ) و هو النبيّ صلى الله عليه و آله عبر عبارة (و أخا ابن عمّي دون رجالكم).

طبيعيّاً، عندما استخدمت الزهراء عليها السلام في قسم سـابق مـصطلح (أخا ابن عمّه) لأنّها كانت في صدد (النسب)، أمّا في القسم الحالي فقد استخدمت (أخاه) لأنّها في صدد جهاده، و من ثمّ (وصيّته) و ما

يواكب ذلك من التداعيات الذهنيّة المرتبطة بالوصيّة و بالأخوّة (كنبوّة موسىعليه السلام و وصيّه هارونعليه السلام) من حيث التماثل بينهما و استشهادهصلى الله عليه وآله بذلك مع تعقيبه: «إلّا أنّه لانبيّ بعدي»...

المهمّ: بهذا التوحّد بين الأخوين، تدخل الخطبة إلى قلب أو البوارة الدلاليّة المستهدفة، فتتحدّث عن شخصيّة الإمامعليه السلام بهذا النحو:

(قذف أخاه في لهواتها:

فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها بأخمصه،

و يخمد لهبها بسيفه،

مكدوداً في ذات اللّه،

مجتهداً في أمر اللّه.... الخ)

إنّ هذا المقطع الخاصّ برسم شخصيّة الإمامعليه السلام (بعد أن كانت الأقسام السابقة ترسم شخصيّة النبيّصلى الله عليه وآله) له: صلته الفنّيّة بهيكل الخطبة بطبيعة الحال، ليس من حيث الوصل بين الشخصيّتين (النبيّ و الوصيّ) فحسب، بل بمحاور الخطبة جميعاً كما سنرى، حيث تعود الخطبة لتربط ـ من جديد ـ بين جهاد الإمام عليعليه السلام و بين سمات المجتمع الجاهلي الّذي رسمته من قبل حينما ربطت بين جهاد النبيّصلى الله عليه وآله و بين المجتمع المذكور، و هذا أحد أشكال الفنّ الخطير حيث تجعل الذهن متداعياً إلى الوحدة بين الشخصيّتين:

النبي و الوصي، نظراً لتماثلهما في جهادهما حيال مجتمعهما ...

إذن: لنتابع المبنى الهندسي لهذا القسم من النصّ، مضافاً إلى سماته الدلاليّة و الصوريّة و الإيقاعيّة ... الخ.

-إنّ أوّل ما يواجهنا في المقطع الجديد هو (العنصر الصوري) في أوّل وحدة صوريّة، و هي الصورة الاستعاريّة أو الرمزيّة الّتي ربطت بين شخصيّة النبيّ صلى الله عليه و آله و الجهاد و شخصيّة الإمام عليه السلام، و نعني بها صورة (قذف أخاه في لهواتها)، أي: لهوات الحروب ... فماذا تعني هذه الصورة الملفتة للنظر؟

إذا أخذنا اللهوات بمثابة جهاز للفم، فحينئذ فإنّ الرمز للحروب يتجسّد في أنّه عليه السلام هو الناطق بها؛ أي له الكلمة الحاسمة في الحرب، و هو أمر أجمع المؤرّخون عليه من أنّه بطل معارك النبيّ صلى الله عليه و آله و ما نازل أحداً إلّا صرعه، و يكفي أنّ المشركين قد وتروا منه لأنّه عليه السلام أباد ذؤبانهم ... كما أنّ السياق الّذي وردت فيه هذه الصورة يسعفنا بهذا الاستخلاص حيث يقول النصّ كما لاحظنا:

ـ (فلا ينكفئ حتّى يطأ صحافها بأخمصه
و يخمد لهبها بسيفه...)

فإذا كانت الكلمة التامّة له في حسم الحرب، فإنّ صورة كونه يخمد لهبها تتطابق مع الحسم المذكور، كما أنّه عليه السلام حينما يطأ صحافها بأخمصه، يتجانس ذلك مع الموقف المشار إليه ...

هنا، قد يثار التساؤل عن الصورة الأخيرة (يطأ صحافها بأخمصه) من حيث وهج دلالتها، فنقول: إنّه من الممكن أن تكون الصورة هنا (تناصاً) أو (تضميناً) لمتن يستخدمه المعنيّون باللغة، أو لنقل: إنّه تضمين لمَثَل مأثور، حيث ورد أكثر من استخدام للصورة المذكورة كالضرب على الصماخ ليُرمز به إلى النوم مثلاً أو إلى وطئه لإبطال السمع، أو ـ كما وردت الخطبة ـ إلى وطئه بالأخمص ليرمز به إلى السحق بالقَدَم، و جميعاً ترمز إلى إبطال فاعليّة الحرب من خلال بطولته عليه السلام المتفرّدة، و هو أمر ينسجم ـ فضلاً عمّا ذكرناه ـ مع التناص أو التضمين السابق على الصورة و هو استشهادها عليها السلام بالآية القرآنيّة الكريمة «كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللّه»، بمعنى: أنّ بطولته عليه السلام (و قد ثمّنها النبيّ بعبادة الثقلين) تُطفئ الحرب و تحسمه لصالح الإسلاميّين من حيث استمدادها من اللّه تعالى (و هو عليه السلام ممّن يفنى في ذاته تعالى ...)

و ما ننتهي من رسم البطولة البدنيّة حتّى نُسعَف بالبطولة الروحيّة، لنواجه الصور القائلة:

(مكدوداً في ذات اللّه ... الخ) هذه السلسلة الطويلة من الصور فيما يغرق بعضها في اللامباشرة، و بعضها يتوكّأ على المباشرة مثل (ناصحاً، مجدّاً، كادحاً، قريباً من رسول اللّه ... الخ) تجسّد صياغة دلاليّة لها أهمّيّتها في الموازنة بين الجانبين: البدني و النفسي أو المادّي و العبادي: كما هو واضح.

و الحقّ أنّ الصور المشار إليها إنّما هي تـمهيد لرسـم المـوقف الجديد (و المتكرّر أيضاً)، أي: الرسم مرّة جديدة لبيئة كان القـوم يحيونها، حيث سبق أن لاحظنا أنّ العرض للبيئة الجاهليّة المقترنة بالانحراف قد تمّ خـلال مـوقعين مـن الخـطبة، أي فـي سـياقين خاصّين أوضحناهما في حينه، أمّا الآن فثمّة سياق ثالث يتمّ فـيه رسم البيئة من جديد و لكـنّها البـيئة المـنافقة، و ليست الشـيئين السابقين، ألا و هو: الموقف المـرتبط بـمشاركة الإمـام عـليعليه السلام للظاهرة مقابل الانحراف من العدوّ، فيكون التكـرار حـينئذ (دالّاً) فنّيّاً من جـانب، و له سـياقاته الخـاصّة مـن جـانب آخـر، إذ أنّ «التكرار» بصفته عنصراً فنّيّاً إمّا أن يحدث لأنّ الدلالة المسـتهدفة تتطلّب تأكيداً عليها، و إمّا لتفاوت السياقات الموجبة لذلك، كـما لاحظنا.

و هاهيعليها السلام ترسم ملامح البيئة الإسلاميّة خلال سنوات صراعه مع الكفّار، أي: ترسم بيئة هؤلاء المـخاطبين مـن حـيث طـرائـق استجابتهم لجهاد النبيّصلى الله عليه و آله و الوصيّعليه السلام، فـتقرّر بأنّـه فـي الوقت الّذي كان الإمام عليعليه السلام مكدوداً في ذات اللّه تعالى، قـريباً مـن رسول اللّهصلى الله عليه و آله، خائضاً المعارك مع المنحرفين، إذا بكم أنتم أيّـها المجتمعة أبدانها هنا:

(ــفي رفاهيّة من العيش،

وادعون،

فـاكهون،

آمـنـون،...الخ)

ليس هذا فحسب، بل تـتوقّعون أخـبار السـوء، و تـفرّون مـن المعارك، ... ثمّ ماذا؟

بعد أن توفّى النبيّصلى الله عليه وآله انقلبتم على الأعقاب، حيث:

(ظهرت فيكم حسيكة النفاق،

و سـمـل جـلـبـاب الـديـن،

و نـطـق كـاظـم الـغـاويـن،

و نـبـغ خـامـل الأقـلّـيـن،

و هـدر فـنـيق الـمـبـطـلـيـن)

هنا ـ قبل أن نتابع استمراريّة الرسم للموقف ـ يـتعيّن عـلينا أن نشير إلى عمارة النصّ في قسمه الّذي نتحدّث عنه، فالملاحظ أنّه من جانب قد توفّر على رسم بيئتين: ١. البـيئة (قـبل وفـاتهصلى الله عليه وآله) و ٢. البيئة (بعد وفاتهصلى الله عليه وآله) ...

كما يلاحظ أنّه من جانب قد رسم ملمحين: ١. أحدهما رسـم البيئتين المذكورتين ٢. و الآخر: «التكرار» لمـعطيات كـتاب اللّـه تعالى، حيث أشارتعليها السلام في مستهلّ القسم الثالث من الخطبة (بعد التمهيد و الشهادتين ـ أي الدخول إلى الموضوع المستهدف) إلى أنّ

هؤلاء القوم قد استخلف اللّه تعالى عليهم كتاب اللّه تـعالى، فـيما رسمته بالضياء اللامع، و النور الساطع، و البصائر البيّنة، و السرائـر المنكشفة ... الخ، أمّا الآن في السياق الجديد ترسم معطيات القرآن الكريم أيضاً و لكن من خلال الإشارة إلى كـتاب اللّـه تـعالى مـع معطياته المتنوّعة، و لكنّهم خلّفوه وراء ظـهورهم (عـلى نـحو مـا سنوضّح ذلك بعد قليل ... و هذا يعني: أنّ العمارة الفنّيّة لهذا القسم من الخطبة و ارتباطها بما سبقها و بما يـلحقها يـظلّ مـن الوثـاقة و الإحكام و الجماليّة بمكان ...

و لكن بغضّ النظر عن المبنى الهندسي المتقدّم، نتابع استمراريّة الرسم للموقف الجديد الّذي تتحدّث الخطبة عـنه، و هـو يـتضمّن شريحتين أو بيئتين، إحداهما خلال حياته صلى الله عليه و آله حيث كـان الإمـام علي عليه السلام هو الشخصيّة المساندة، و الأُخرى بعد وفاته صلى الله عليه و آله حـيث انقلاب القوم على أعقابهم، ...

و لنقف عند هذين الرسمين، و لنبدأ بأوّلهما و هو:

ـ الإشارة إلى جملة سمات طبعت سلوك هـؤلاء القـوم، مـثل: الرفاهيّة، الوداعة، الفكاهة، الأمن (من جانب) ثمّ: تـمنّيهم لنـزول البلايا، توقّعهم لأخبار السوء، نكـوصهم عـند المـعركة، و أخـيراً: هروبهم من الساحة القتاليّة ...

لننظر أوّلاً إلى التقسيم الهندسي الثنائي لسلوك القوم:

ـأوّلاً: ثمّة سمات أربع (الرفاهيّة ... الخ)

ـثانياً: ثمّة سمات أربع أيضاً (التمنّي لنزول الشدائد ... الخ)

ـالسمات الأولى ترتبط بسلوك خاصّ هو الحياة المطمئنّة الّتي يحياها القوم قبالة الحياة المتوتّرة الّتي يحياها الإمام عليّ في المعارك و شدائد البيئة المنحرفة ...

ـو أمّا السمات الثانية فترتبط بسلوك عدواني حيال الرسالة الإسلاميّة، حيث يتمنّون نزول البلايا، و يتوقّعون أخبار السوء، ... الخ.

و من البيّن أنّ هذا التوازن العماري أو الهندسي بين طبقين من بناء العمارة، و التوازن بين أربعة أجنحة متقابلة بين الطبقتين المتقدّمتين (أي طبقتي السمات الأمنيّة للقوم و العدوانيّة، و التوازن بين أربعة سمات لكلّ طبقة مع أُختها) ...

ثمّ لندع البناء الجمالي المذكور، و ندع البيئة الّتي انتظمت هذا البناء و هي البيئة الّتي جسّدت حياة النبيّصلى الله عليه وآله و المقارنة بين جهاد الإمام عليعليه السلام و بين قعود القوم، ... لندع هذه البيئة و نتّجه إلى البيئة الثانية، و هي بيئة ما بعد وفاة النبيصلى الله عليه وآله حيث نواجه بناءً هندسيّاً له جماليّته أيضاً، من حيث التوازن بين البيئتين من جانب، و من حيث المقارنة بين مواقف القوم السلبيّة في حياتهصلى الله عليه وآله، و مواقف القوم السلبيّة بعد مماتهصلى الله عليه وآله، حيث رسمتهم الخطبة وفق

عمارة هندسيّة محكمة، على هذا النحو:

١. **(ظهرت فيكم حسيكة النفاق... و هدر فنيق المبطلين)**

٢. **(فخطر في عرصاتكم...**

٣. **(فوسمتم غير إبلكم... الخ)**

هذه المقاطع الثلاثة يتضمّن كلّ واحد منها جملة صور تتناول ـبطبيعة الحال ـ شريحة من أنماط السلوك لدى القوم، ثمّ نواجه مقاطع أُخرى و شرائح متنوّعة، نبدأ الآن لنعرضها صوريّاً و بنائيّاً بحسب تسلسلها، ...

و نقف عند المقطع الأوّل

ـ(ظهرت فيكم حسيكة النفاق... الخ)

ترى: ماذا تحمل هذه الصورة و ما بعدها من السمات الجماليّة و الدلاليّة؟

إنّ الزهراءعليها السلام وسمت موقف هؤلاء القوم بسمة النفاق، و ركّزت على مفردة الحسيكة) و هي الحقد أو العدوان، و ممّا لاشكّ فيه أنّ النفاق يستبطن بالضرورة حقداً أو عدواناً لأنّه ببساطة إظهار شيء و استبطان شيء آخر، إظهار الإيمان و إبطان الكفر أو المعصية، إنّ إظهار الأوّل بسبب من اللهاث وراء المكاسب الشخصيّة، و أمّا إبطان الأوّل فلأنّه الدافع أو الميل الواقعي للمنافق، و حينئذ مادام الإظهار لشيء يقترن بمداهنة للطرف الآخر، فهذه المداهنة تقترن

بمشاعر الحقد و العدوان حينئذ، و لذلك فإنّ إبراز هذا الحقد أو العدوان بعد أن كان مخفيّاً في الأعماق يظهر مع زوال المناخ الّذي فرض نفاق الشخصيّة، أما و قد انتقل رسول اللّهصلى الله عليه وآله إلى الدار الآخرة فحينئذ زالت مقتضيات الإظهار لما هو خلاف الباطن، و ظهرت النوازع المخفيّة و هي الحقد أو العدوان ...

المهمّ، عندما يظهر ما خفي في الباطن، تبرز آثاره، و هذا ما اضطلعت الصورة الاستعاريّة الثانية برسمه و هي صورة (سمل جلباب الدين) أي: بلي من طول الاستبطان فظهر على حقيقته ... ثمّ ماذا؟ تقول الصورة الثالثة (و نطق كاظم الغاوين)، و هذا بطبيعة الحال، حيث ظهرت الحقيقة ـكما قلنا ـ، و ظهورها يتجسّد في الاستعارة الّتي خلعت طابع (الإنطاق) على الاستبطان المذكور أو كما عبّرت الصورة (نطق كاظم الغاوين) أي: الساكت و هو رمز الاستبطان المنافق ...

و أخيراً (نبغ خامل الأقلّين)، أي: ما كان خاملاً في زمن النفاق نبغ الآن، فظهر الموقف الجديد المنحرف على حقيقته ... هنا، يجدر ـو لو سريعاً ـ أن نشير إلى أنّ هذه الاستعارات المتتابعة عضويّاً: ـكما لحظنا ـ إنّما توكّأت على السمل، و النطق، و النبوغ، فلأنّها أدوات واضحة لظهور الشيء بعد استبطانه، ظهور البلى، و الكلام، و النبوغ.

و أخيراً: فإنّ التتويج لهذه الظهورات هو: سلسلة جديدة من الصور الفنّيّة تجسّد مقطعاً جديداً تخصّصه الزهراء، لرسم الشخصيّة الشيطانيّة، و هو المقطع الثاني الّذي عرضنا لنموذجه ... إلّا أنّهاعليها السلام رسمت صورة تتوسّط أو تصل بين المقطع الثاني و هي صورة:

ـ (و هدر فنيق المبطلين...)

الهدير هنا، نتيجة طبيعيّة للظهورات المتقدّمة: الجلباب، و النطق، و النبوغ، و هو مدعم بالمصدر الرئيس للسلوك المنحرف (الشيطان)، و لذلك رسمته الزهراءعليها السلام بهذا النحو:

ـ (فخطر في عرصاتكم، و أطلع رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين...الخ)

أي: إنّ الباطل أو الحيوان الرامز له (الفحل) أخذ يرفع ذَنَبَه في عرصات هؤلاء القوم: تعبيراً عن فاعليّة نشاطه، و نجاحه في تمرير المؤامرة: حيث كان الشيطان سابقاً مختفياً في الأعماق، أمّا الآن فقد أطلع رأسه ليمارس نشاطه بحرّيّة ...

هنا، نلحظ مدى التجانسات المتنوّعة لموضوعات المقطع، بخاصّة: الموضوعات المرتبطة بخفاء الأمور و ظواهرها، أي: السمات الّتي رسمتها الزهراءعليها السلام للمنافقين في خفاء حقائقهم الّتي ظهرت بعد وفاة محمّدصلى الله عليه وآله ... فالنفاق يتضمّن (خفاءً) في الأعماق

لدى القوم في زمن حياة الرسولصلى الله عليه وآله، و يتضمّن (ظهوراً) بعد وفاته، و كذلك: الشيطان يختفي في الأعماق في زمن حياة الرسولصلى الله عليه وآله و مطلع رأسه بعد وفاته ... و لندقّق النظر في الصورة الأخيرة و هي أنّ الشيطان يطلع رأسه من المغرز، من المكان المخفيّ حيث تتضمّن هذه الصورة الحسّيّة مرأى مدهشاً و ملفتاً للنظر يقترن بما هو مثير حقّاً بخاصّة إذا سُمِحَ لأحدنا أن يتخيّل المرأى المذكور في حالة مواجهة الإنسان لظهور رأس الشيطان فجأة بعد أن كان معدوماً، و ظهوره و قد أطلع رأسه مزهوّاً بما فَجَر ...

هذا، و قد اضطلعت الصور الباقية بإظهار الاستجابة المنحرفة لدى القوم حيال الشيطان الّذي أطلع رأسه، حيث وجدهم مستجيبين لرسالته المنحرفة، و هذا هو ما استهدفته الزهراءعليها السلام في فضح القوم ... إلّا أنّهاعليها السلام، اتّجهت بعد صياغتها للموقف أو المرأى المذكور إلى التعليق (الصوري) القائل:

(فوسمتم غير إبلكم، و أوردتم غير مشربكم ... الخ) و هو المقطع الثالث من القسم الّذي نحن بصدده، و هي صور لها دلالتها الجماليّة الفائقة من حيث رسمهم (أي القوم) متوسّمين، أي: يتوسّمون من خلال عمليّة استعراض لعضلاتهم أو استعراض لموقف جديد توسّموا فيه نجاح السلوك المنحرف الصادر عنهم، إلّا أنّه (توسّم) لغير إبلهم، ... توسّم للباطل ... و من ثمّ: ورود الإبل المشار إليها لغير موردها المطلوب ...

و من البيّن أنّ هذه الصور: ترمز إلى أنّ القوم صدروا عن الباطل، و من ثمّ فإنّ النتائج المترتّبة على ذلك ليست في صالحهم البتّة، و هذا ما اضطلعت الصور التعقيبيّة الآتية عليه (و هي صور تناصيّة ـ تضمينيّة) تشكّل امتداداً عضويّاً لما سبق و لحق هذا القسم من خطبتهاعليها السلام:

(ألا في الفتنة سقطوا، و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين)

و أخيراً: تصل الزهراءعليها السلام بين هذه المصائر الّتي سينتهي إليها القوم (أي سقوطهم في الفتنة و في جهنّم) و بين التذكير جديداً بالقرآن الكريم من حيث وضوح مضموناته:

(أموره ظاهرة، و أحكامه زاهرة، و أعلامه باهرة، و زواجره لائحة، و أوامره واضحة)...

لنلاحظ: أنّ الزهراءعليها السلام قد استشهدت في أوّل مخاطبتها لمضمونات القرآن من حيث صلة ذلك بالقوم، أي: إشارتها إلى أنّ القرآن الكريم قد استخلفه اللّه تعالى عليهم، و هاهي الآن تتوسّل بالأداة ذاتها في مخاطبتها بالقرآن الكريم و لكن في سياق آخر: سياق تركهم إيّاه وراء ظهورهم ...

و أمّا صوريّاً: فالملاحظ أنّ الصور المتقدّمة خضعت لصياغة خاصّة يمكن رصدها على هذا النحو:

ـ التركيبة التخيّليّة تتّسم بالوضوح و الأُلفة بالمقايسة إلى صور

متقدّمة، و هو أمر لاحظناه أيضاً عند استشهادها بالقرآن الكريم في أوائل الخطبة قبل (القرآن الصادق) و (النور الساطع) و (الضياء اللامع) و (متجليّة ظواهره) ... الخ.

فهنا نلحظ تناسقاً بين الموقعين، و هو تناسق إيقاعي و تركيبي و صوري و إلهامي ... أمّا التناسق التركيبي فلقصر العبارات حيث يغلب أو يتمحّض لكلمتين فحسب (أموره ظاهر، أحكامه زاهرة، زواجره لائحة ... الخ)، و هكذا بالنسبة إلى الاستشهاد الأسبق (النور الساطع، الضياء اللامع، منكشفة سرائره، بيّنة بصائره ... الخ)، و أمّا الإيقاعي فلا يحتاج إلى تعقيب من حيث خضوع الموقعين إلى الفواصل الموحّدة من جانب و إلى التناسق بين توازن و تجانس الموقعين من جانب آخر، ... و يتّضح كلّ من التوازن و التجانس مجتمعين في أمثلة (زواجره لائحة) و (أوامره واضحة) حيث تتوازن الجملتان (زواجره و أوامره) من حيث الهيئة اللفظيّة للعبارتين، و تتجانسان إيقاعيّاً (زواجره و أوامره)، و هكذا من حيث تناسقهما مع الموقع الأسبق، مثل (منكشفة سرائره) و (متجليّة ظواهره) من حيث التوازن، و مثل (عزائمه المفسّرة) و (محارمه المحذّرة) حيث تتجانس العبارتان (محارمه، عزائمه) ... و هكذا ... و أمّا صوريّاً فيتّسم الموقعان ـ كما لاحظنا ـ بوضوح الصورة و أُلفتها، فالنور الساطع و الضياء اللامع و نحو ذلك

في المقطع السابق، و مثل أحكامه زاهرة و أعلامه باهرة ... الخ في المقطع الحالي تظلّ من الأُلفة و الوضوح بمكان ...

و أمّا من حيث الدلالة، فالصور في الموقعين السابق و الحالي تحوم على دلالات متماثلة هي: أنّ الدلالات القرآنيّة من حيث القيم العقائديّة و الأخلاقيّة و الأحكاميّة هي موضع الإفادة، ممّا يتعيّن العمل بها، و لكنّ القوم نبذوا ذلك وراء ظهورهم.

و هذه الظاهرة أي نبذ القرآن وراء ظهورهم قد استخدمته الخطبة تناصاً أو تضميناً حينما عقّبت على ذلك بقولها: (قد خلّفتموه وراء ظهوركم)، ... ثمّ تتسائل: (أرغبة عنه تدبرون، أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلاً، و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، و هو في الآخرة من الأخسرين) ...

لنلاحظ بدقّة هذه التناصات أو التضمينات القرآنيّة الكريمة الّتي تطبع مختلف مقاطع و أقسام الخطبة بنحو لافت للنظر، أنّها خصيصة فنّيّة جديرة بالتأمّل حقّاً، لا لأنّ ذلك مجرّد إفادة أُسلوبيّة و دلاليّة من النصّ القرآني الكريم بل ـ بالإضافة إلى ما تقدّم ـ أنّها تفصح ـ و لو بطريق فنّيّ غير مباشر ـ أنّها هي عليها السلام أفادت من القرآن الكريم في دلالاته، و هذا يتناسق مع مطابقتها القوم أن يفيدوا من القرآن الكريم في الالتزام بأحكامه و عقائده و أخلاقه ...

على أيّة حال، بعد ذلك تواصل عليها السلام مخاطبتها مستكملة عرض

السلسلة من سلوك القوم، فهي بعد أن أجملت الإشارة إلى أنّ الشيطان أطلع رأسه بين القوم و أنّهم استجابوا له، بدأت الآن (تفصّل) خيوط المؤامرة فتقول أوّلاً تعقيباً على سلوكهم المبتغي غير الإسلام ديناً و المُفضي بهم إلى الخسارة الأُخرويّة:

ـ (ثمّ لم يلبثوا إلّا ريثما تسكن نفرتها، و يسلس قيادها)

بعد ذلك تبدأ بتفصيل السلوك المتآمر على هذا النحو:

(ثمّ أخذتم تورون وقدتها و تهيجون جمرتها، و تستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ، و إطفاء نور الدين الجليّ، و إهمال سنن النبيّ الصفيّ... الخ).

إنّ الصورتين الأوليين الرابطتين بين القسم السابق من الخطبة و قسمها الحالي، أي: صورتي (ثمّ لم تلبثوا إلّا ريثما يسكن نفرتها و يسلس قيادها)، تضطلعان بمهمّة جماليّة فائقة. فهما من جانب، ينطويان على دلالات صاعدة، نظراً لاستخدامهاعليها السلام في الصورة استعارة (تسكن نفرتها) ـ و هي حادثة وفاتهصلى الله عليه وآله و ما يواكبها من تفجير المؤامرة، و دخول الشيطان، الخ ـ و في الاستعارة الثانية (يسلس قيادها)، فالنفرة حينما تسكن، يسلس قياد الأمور نحو الوجهة الّتي يستهدفها القوم، و هذا تركيب صوريّ له أهميّته البالغة من حيث الظواهر الّتي انتخبتها الزهراءعليها السلام لرسم الموقف، فالوفاة ـ وفاتهصلى الله عليه وآله ـ تحدث اضطراباً في الحياة الاجتماعيّة، و مفاجأة

القوم بها، و التوتّر الّذي يسود الأعماق و ما يواكبه من الصراع بين قوى الخير و الشرّ من جانب، و بين فرص استثمار الشرّ من جانب آخر، أولئك جميعاً تنسحب عليها الصورة الأولى (هياج نـفرتها)، لكن بعد حين (يسكـن) ذلك: أي (تسكـن نـفرتها) فـإذا سكـنت أصبحت الأمور مكتسبة طابع السهولة (يسلس قيادها) حـيث أنّ انتخاب (القياد) للشيء هو أنسب الظواهر لتمرير المؤامرة و قـطع الرحلة المنحرفة لمسـافتها الّـتي تسـتهدف الوصـول فـي نـهاية المطاف ... من هنا، فإنّ هاتين الصورتين ـ بالإضافة إلى ما تضمّنتاه من الدلالات ـ تبدآن لتُلقيا الاضاءة على الرحلة الجديدة للمؤامرة، حيث تحتاج الرحلة إلى زاد يتقوّى به القوم، و لذلك جاءت الصور الآتية جواباً لما تقدّم، ألا و هي:

ـ (ثمّ أخذتم تورون وقدتها، و تهيجون جمرتها، و تستجيبون لهتاف الشيطان...)

هنا لابدّ من وقفة أو وقفات: لملاحظة الصور و نموّها العضوي و صلاتها بما سبق و يلحق ... فبالنسبة إلى تهيئة الزاد للرحلة، أخذ القوم (يورون وقدتها) أي: ينسحبون خيوط المؤامرة بـعد وفـاته، و النسـيج أو الطـبخ يـحتاج إلى الوقـود (أوّلاً) و هـاهم (يـورون وقدتها)، ثمّ يحتاج إلى تصعيد الحرارة حتّى تنضج الطبخة، فهاهم (يهيجون جمرتها)، فإذا تمّ ذلك: يحكمون الأمر، و به (يسـتجيبون

لهتاف الشيطان القويّ) لانغفل هنا ظاهرة النموّ العضوي للموضوع، فالشيطان ـ في القسم السابق الّذي انتهينا منه قبل قليل ـ أطلع رأسه على القوم، و استجاب له القوم أولئك على نحو الإجمال دون تفصيل، أي أنّ الزهراء عليها السلام ذكرت بأنّ الشيطان أطلع رأسه و هتف بهم و رآهم ـ أي القوم ـ مستجيبين لندائه، ... هذا في المقطع السابق. أمّا حاليّاً فقد استجابوا فعلاً لهتاف الشيطان ... و لنلاحظ في هذا السياق أنّ الخطبة في القسم الأوّل منها قالت إنّ الشيطان أطلع رأسه و هتف، أمّا الآن فتقول استجابوا لهتافه فعلاً، ... في القسم الأوّل أطلع رأسه من المكان الّذي اختفى فيه، أمّا الآن فقد برز (لا أنّه قد أطلع رأسه فحسب) بل (هتف) بالقوم و نزل إلى الساحة ... لندقّق ثانية في صياغة الموقف من حيث النموّ الفنّي للخطبة، ... النموّ من المكان الخفيّ إلى المكان الجليّ، النموّ من مجرّد طلوع الرأس إلى الهتاف ... إلى الاستجابة الفعليّة ...

و هذا كلّه فيما يرتبط بالصلة الفنّيّة بين هذا القسم و بين القسم السابق، ثمّ بينه و بين الصورتين الرابطتين (تسكن نفرتها و يسلس قيادها) ... ثمّ بالنسبة إلى استمراريّة الصور: نواجه خصائص جماليّة يجدر بنا الوقوف عندها ... فالخطبة عندما أوضحت بأنّ القوم أخذوا يورون وقدتها و يهيجون جمرتها و يستجيبون لهتاف الشيطان، قدّمت لنا سلسلة صوريّة خاضعة لإيقاع واحد (أي

الفاصلة الموحّدة) بهذا النحو:

(تستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ

و إطفاء نور الدين الجليّ

و إهماد سنن النبيّ الصفيّ)

إنّ هذه الصور الثلاث المتّحدة فاصلة (الغويّ، الجليّ، الصفيّ) تحمل دلالة خاصّة، فهي من جانب تلخّص حصيلة الموقف بحسب خطواته المرسومة، فهناك الاستجابة للشيطان (و قد أضافت الخطبة هنا سمة على الشيطان هي (الغويّ) بينما رسمته بدون صفة في القسم الأسبق، ... و أمّا السرّ الفنّيّ وراء ذلك، فلأنّ القوم قد استجابوا فعلاً لهتافه، فحينئذ ناسب أن تخلع عليه صفة (الغويّ) ...

ثمّ: هناك الاستجابة لإطفاء نور الدين الجليّ ... و لنلاحظ أنّ الخطبة قد خلعت صفة (الجليّ) على نور الدين لأنّ المقاطع السابقة أوضحت جلاء القرآن من جانب، و أنّ القوم الآن ـ و هم يسعون لإطفاء النور ـ على وعي بجلاء هذا النور، إلّا أنّ الذاتيّة و العدوان ـ و هما المحرّكان للسلوك المنحرف ـ أقوى فاعليّة في نفوس المنحرفين، ... ثمّ هناك الاستجابة ثالثة إلى إهماد سنن النبيّ الصفيّ ... لنلاحظ أيضاً هذه الصورة الثالثة بإمعان أشدّ، حيث ذكرت الخطبة أوّلاً ظاهرة (الإهماد أي الهمود)، حيث يجيء

الهمود بعد الانطفاء، ففي الصورة السابقة استجابوا لإطفاء النور بعامّة (نور الدين)، كما لو صبّ الماء مثلاً على الشعلة، أمّا الآن فقد تطوّر الموقف عضويّاً حينما أعقب الصبّ عمليّة همود و إزاحة أيّ أثر لبقايا الشعلة، ثمّ ماذا؟: النموّ العضويّ الآخر هو: النقلة من إطفاء نور الدين بعامّة إلى إهماد سنن النبيّ الصفيّ، أي: النقلة من العام إلى الخاصّ، و هذا الخاصّ (و هو شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله) و سننه، و في مقدّمتها (الوصيّة بإمامة عليّ عليه السلام) قد وسمته الصورة التمثيليّة بالاصطفاء أو بصفاء السمة، و كلاهما يتناسب مع الموقف، حيث تستهدف الخطبة الإشارة إلى أنّ الصفة (الصفيّ) لها موقعها العضويّ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد اصطفاه أو استصفاه اللّه تعالى فلايقول هجراً عندما يصوغ توصيته بإمامة عليّ عليه السلام، ... إذن هذه الصفة الجديدة (الصفيّ) ـ مضافاً إلى ما لاحظناه من الصفتين الأُخريين الجديدتين: صفة (الغوى) للشيطان، و صفة (الجليّ) للدين ـ توازنت جميعاً من حيث النسق الهندسي، أي: خضوع الصفات الثلاث (الغوى، الجليّ، الصفيّ) لسياقات خاصّة فرضها الموقف الجمالي و الدلالي بالنحو الّذي أوضحناه ...

بعد ذلك نواجه صوراً جديدة، تختتم به الخطبة الّتي جمعت فيها بين شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله و الإمام عليّ عليه السلام لتتّجه إلى خطاب آخر يتّصل بفدك حيث تستثمر عليها السلام ظاهرة فدك (و هي لاقيمة لها عباديّاً) و لكنّها أداة لتنبيه القوم ...

أمّا الصور الّتي يختتم بها الخطاب المتقدّم فهي: الصور الّتي تتحدّث عن السكّين و عن السنان و أثرهما في الأعماق: بصفة أنّها صور ترمز إلى «الصبر» حيث طبع سلوكها و سلوك الإمام عليّ عليه السلام، حيث أنّ ملاحظة هذا الانقلاب على الأعقاب و الصبر عليه يتطلّب شخصيّات مصطفاة كالإمام عليّ عليه السلام و الزهراء عليها السلام،... و قد انتخبت السكّين و السنان، لأنّ الأوّل (يقطع) و الآخر (يمزّق)، و هي: رمزان إلى أشدّ مستويات الطعن و أشدّ مستويات الصبر...

بهذا، يختتم القسم السابق، لنتّجه إلى القسم الأخير من الخطبة، و هو قسم له خصوصيّته، و يتضمّن جملة مقاطع، نبدأ بدراستها على هذا النحو:

(تزعمون أنّ لاإرث لي (أفحكم الجاهليّة يبغون و من أحسن من اللّه حكماً لقوم يوقنون»، أفلاتعلمون بلى قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته)...

و تخاطب الرجل:

(أفي كتاب اللّه أن ترث أباك و لاأرث أبي، لقد جئت شيئاً فريّاً، أفعلى عمد تركتم كتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول «وورث سليمان داوود» و قال فيما اقتصّ خبر يحيى من زكريّا إذ يقول «ربّ هب لي من لدنك وليّاً يرثني...» و قال «و أولو الأرحام...» و قال «يوصيكم» و قال «إن ترك خيراً الوصيّة»...)

الملاحظ، أنّ التوكّؤ على القرآن الكريم يظلّ من الكثافة بـنحو لانكاد نجده في النصوص الفنّيّة، حيث تستمدّ الزهراء في نمطين، النمط الغالب و هو ظاهرة التناص أو التضمين، ثمّ ـ و هذا ما يفرضه سياق خاصّ فحسب ـ الاحتجاج به، بخاصّة أنّها بين حين و آخر كما لاحظنا تأخذ على القـوم عـدم عـملهم بـمضمونات القـرآن، و حينئذ ما أحراها أن تفيد هي، و هذا ما توفّرت عليه بشكل مكثّف كما لاحظناه، و لعلّ هذه الكثافة تفسّر أيضاً مدى التـجانس بـين مضمون الخطبة و أسلوبها الفنّيّ: في التوكّؤ على النـصّ القـرآنـي بنمطيه التناصي و الاحتجاجي.

إنّ الأهمّيّة الجماليّة تتمثّل في أسلوب التناص الّذي استخدمته، فمثلاً عند ما تخاطب (... ترث أباك و لاأرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً) نجد أنّ عنصر التساؤل من جانب، و التعقيب عليه من خلال التناص من جانب آخر يجسّد أحد ملامح الفنّ المدهش و المثير ... و هكذا بالنسبة إلى سائر استخداماتها ...

و لندع هذا ثمّ نـتّجه إلى التـلويح بـالمصائر الّـتي تـنتظر مـن تخاطب:

(فدونكها مخطومة مرحـولة، تـلقاك يـوم حشـرك، فـنعم اللّـه الحَكَم، والغريـم محمّد، و الموعد القيامة، و عـند السـاعة يـخسر المبطلون...)

إنّ هذا المقطع شريحة لغويّة مثيرة لا يمكن للقراءة أن تفصح عن مواقع إثارتها الفنّيّة بقدر ما يحكم التذوّق الجمالي بذلك، فأسلوب العبارة (قصرها من جانب) و إيقاعها المتجانس و المتتابع (مخطومة مرحولة)، و أدوات العطف المتلاحقة «الغريم، و الموعد» و تقطيع العبارات، و خطفها السريع، و الدمج المتنوّع بينها حيث تصل بين الحكم و محمّد و القيامة و الآية القرآنيّة بأسلوب (إعلامي) بأنّه الإثارة، فضلاً عن التساؤل و التعقيب و التهديد و ...الخ، تشكّل جميعاً، عناصر لها دهشتها الجماليّة حقّاً ...

خطبتها في مرضها لنساء المهاجرين و الأنصار

خطبتهاعليها السلام في مرضها لنساء المهاجرين و الأنصار

و قال سويد بن غفلة: لمّا مرضت فاطمة سلام اللّه عليها المرضة الّتي توفّيت فيها، دخلت عليها نساء المهاجرين و الأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علّتك يا ابنة رسول اللّه؟ فحمدت اللّه و صلّت على أبيها، ثمّ قالت:

أصبحت و اللّه عائفة لدنياكنّ، قالية لرجالكنّ، لفظتهم بعد أن عجمتهم، و سئمتهم[1] بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحدّ و اللعب بعد الجدّ[2]، و قرع الصفاة، و صدع القناة، و ختل الآراء و زلل الأهواء، وبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط اللّه عليهم، و في العذاب هم خالدون، لاجرم لقد قلّدتهم ربقتها و حملتهم أوقتها، وشنّت عليهم غاراتها، فجدعاً و عقراً وبعداً للقوم الظالمين،

---

١. شنأتهم (خ ل). ٢. لأفون الرأي و خطل القول (خ ل).

ويحهم أنّى زعزعوها[1] عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة والدلالة، و مهبط الروح الأمين و الطبين بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، و ما الّذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟ نقموا و اللّه منه نكير سيفه، و قلّة مبالاته لحتفه، و شدّة وطأته، و نكال وقعته، و تنمّره في ذات اللّه، و تاللّه لو مالوا عن المحجّة[2] اللائحة، و زالوا عن قبول الحجّة الواضحة، لردّهم إليها و حملهم عليها، و لسار بهم سيراً سجحاً، لايكلّم حشاشة[3]، و لايكلّ سائره، و لايملّ راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رويّاً، تطفح ضفتاه و لايترنّق جانباه، ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سرّاً و إعلاناً، ولم يكن يتحلّى من الدنيا بطائل، و لايحظى منها بنائل، غير ريّ الناهل و شبعة الكافل، و لبان لهم الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب، «و لو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض و لكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون»[4]، والّذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيّئات ما كسبوا و ما هم بمعجزين، ألا هلّم فاسمع، و ما عشت أراك الدهر عجباً، «و إن تعجب فعجب قولهم»[5]، ليت شعري إلى أيّ سناد استندوا و إلى أيّ عماد اعتمدوا، و بأيّة عروة تمسّكوا، وعلى أيّة ذرّيّة أقدموا

---

١. زحزحوها (خ ل). ٢. الحجّة (خ ل). ٣. خشاشة (خ ل).
٤. الأعراف/٩٦. ٥. الرعد/٥.

واحتنكوا؟ لبئس المولى و لبئس العشير، «وبئس للظالمين بدلا»[١]، استبدلوا و اللّه الذنابى بالقوادم، و العجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، «ألا إنّهم هم المفسدون و لكن لايشعرون»[٢]، ويحهم «أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لايهدّي إلّا أن يهدى، فما لكم كيف تحكمون»[٣]، أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج ثمّ احتلبوا ملأ القعب دماً عبيطاً و زعافاً[٤] مبيداً، هنالك يخسر المبطلون و يعرف البطّالون غب ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن دنياكم أنفساً و اطمئنّوا للفتنة جأشاً، و أبشروا بسيف صارم و سطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرتا لكم، و أنّى بكم و قد عميت عليكم، «أنلزمكموها و أنتم لها كارهون»[٥].

---

١. الكهف/٥٠. ٢. البقرة/١٢. ٣. يونس/٣٥.

٤. ذعافاً (خ ل). ٥. الاحتجاج للطبرسي، ص١٤٦ ـ ١٤٩.

تبدأ الخطبة بالدخول إلى الموضوع المستهدف مباشرة (عكس الخطبة السابقة الّتي خضعت لتقاليد فنّيّة جديدة هي: «التمهيد» من خلال الحمد للّـه تـعالى و الصـلاة عـلى رسـوله صلى الله عليه وآله و الإشـادة بالإسلام).

و لعلّ السياق الّـذي وردت الخـطبة خـلاله فـرضت الدخـول مباشرة إلى الموضوع و هو: سؤال النسوة عن مرضها الّذي عـدن فاطمة عليها السلام فيه.

المهمّ أنّ الخطبة استُهلّت بذمّ الدنيا (و لعلّ ذلك يـرتبط بـمناخ الموقف، حيث أنّ المجتمعات نسوة، و ارتباطهنّ بالدنيا و زيـنتها واضح)... و قد احتشدت الخطبة منذ البدايـة بـالعنصر الصـوري و بخاصّة: الاستعارة؛ بينا كانت الخطبة الأولى تتأرجح بين التمثيل و الاستعارة لأسباب أوضحناها في حينه ...

و يلاحظ، أنّ أوّل عبارة افتتحت الخطبة قد اقترنت بـ(القَسَم) و هو سمة فنّيّة لها دلالتها الكبيرة بالنسبة إلى صدقها لما تقرّره من الحقائق، حيث خاطبتهنّ (عائفة لديناكنّ، قالية لرجالكنّ)، و هذه العبارة قد نسبت الدنيا للنساء (بينا عافتها فاطمة عليها السلام)، كما أنّ البغض لرجالهنّ له دلالته، و هو أمر قد يثير تساؤلاً، إلّا أنّ الإجابة من الوضوح بمكان، حيث قلنا أنّ ارتباط النساء بالدنيا و هنّ يعنين بالزينة و بالرجال، يظلّ من الوثاقة بمكان أيضاً، و بذلك نجد هذا المسار الفنّي يجسّد أحد أشكال البناء المحكم، من حيث كونه تمهيداً فنّيّاً للدخول إلى موضوع يتحدّث عن الرجال الّذين بهرتهم زينة الحياة الدنيا بدورها، فصاغوا المؤامرة الّتي أبعدت عليّاً عليه السلام عن الموقع الّذي انتخبه اللّه تعالى و الرسول صلى الله عليه و آله له، حيث يستخلص المتلقّي من هذا التمهيد انصياع البشر للدنيا (الرجال من أجل الجاه و النساء من أجل الرجال).

المهم، أنّ المدخل إلى النساء و دنياهنّ الّتي عافتها فاطمة عليها السلام و بغضها لرجالهنّ المتشبّثين بها، يظلّ تمهيداً لموضوع مستهدف، حيث أوضحت بغضها أوّلاً ثمّ بعد أن مارست عنصر الملاحظة الاجتماعيّة (لفظتهم بعد أن عجمتهم، و شنأتهم بعد أن سبرتهم)...

هنا، لانغفل عن هذه الملاحظة (في حالة ما إذا أخضعناها لطرائق البحث العلمي) حيث استوعبت الطرائق المفضية إلى

النتيجة العلميّة، لأنّ العجم ملاحظة فرديّة و السبر ممارسة إحصائيّة ... و لندع، هذا التمهيد و نتّجه إلى الموضوع مباشرة ... لكن قبل ذلك لابدّ من الإشارة إلى ملحظ مهمّ، هو: أنّ الفارق بين هذه الخطبة و سابقتها أنّ السابقة عرضت لموضوعين هما (الخلافة) و (فدك) مع ملاحظة أنّ فدك تجسّد مدخلاً أو أداة فحسب للموضوع الأوّل أو لنقل: للموضوع العبادي الّذي خلق اللّه تعالى الإنسان من أجله ... أمّا الخطبة الأخيرة فقد تمخّضت للخلافة دون الركون إلى الأداة المذكورة؛ و هذا الجانب يتّسم بالأهمّيّة الفكريّة و الجماليّة دون أدنى شكّ، و ذلك ـ نكرّر ـ لأنّ (فدكاً) يمكن الذهاب إلى أنّها حتّى ليست مجرّد وسيلة للدخول إلى الموضوع المهمّ، بل الدنيا و ما فيها لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها (كما يصوّر الإمام عليّعليه السلام ذلك) فكيف بفدك الّتي تمثّل لاشيئاً من الدنيا من حيث كونها ثروة اقتصاديّة ملغاة من الحساب.

المهمّ: أنّ (الخلافة) الحقّة تظلّ هي المستهدفة لا لأنّها حقّ شخصيّ بل لكونها امتداداً للنبوّة متمثّلة في مفهوم (الإمامة) و امتدادها الزمني في الحياة، أي بدءاً من إمامة عليعليه السلام و انتهاءً بالشخصيّة المعاصرة (المهديعليه السلام)، و هذا المفهوم المجسّد لمبادئ رسمها اللّه تعالى للبشريّة، و إخضاعها (مثل سائر التجارب الّتي

يحياها البشر في خلافة الأرض) للتجربة، حيث أفضت التجربة ـ و هذا ما يؤسف له ـ إلى إبعادهم كلّيّة من الساحة الاجتماعيّة الظاهرة، و ما ترتّب على ذلك من شيوع الانحرافات العقائديّة و العباديّة بنحو عام ... هذا المفهوم أو الموضوع ـ إذن ـ هو ما تستهدف الخطبة لفت الأنظار إليه ... و المهمّ الآن: متابعة الخطبة بعد تمهيدها الّذي لاحظناه، حيث نبدأ بقراءتها جماليّاً ...

* * *

لنقف عند أوّل فقرة من الموضوع، و هي (لفظتهم بعد أن عجمتهم، و شنأتهم بعد أن سبرتهم) حيث لاحظنا دلاليّاً أهمّيّة هذه الوحدة اللغويّة، و قلنا أنّ هذه الفقرة أو العبارة خيط يصل بين الاستدلال (قالية لرجالكنّ) و بين الموضوع الرئيس (إبعاد الإمامة) ... فماذا نجد؟ ... نجد الاستعارة القائلة (لفظتهم بعد أن عجمتهم) ... إنّ اللفظ هو طرح الشيء من الفم، و العجمة هي عضّ العود بالأسنان لاختبار صلابته ... و الاستعارة من الجلاء بمكان، بصفة أنّ صلابة العود و عدمه رمز لصلابة الموقف و عدمها، و هاهم (بعض أصحاب الحلّ و العقد) منصاعون للدنيا، أي لاصلابة لديهم في الموقف بل الهشاشة ... أمّا (اللفظ) فيرمز إلى اليأس منهم، و لانعتقد أنّ ثمّة رمزاً يتناسب مع (اللفظ) لهؤلاء الرجال، لأنّ اللفظ هو نهاية الاحتقار للشيء، كالنواة الّتي تلفظ، أو الثقل ... الخ و من

الطبيعي أنّ هذه الاستعارة جاءت بعد اختبار ظاهرة (السقيفة) ثـمّ امتداداتها إلى حين وفاتهاعليها السلام حيث كشف الرمز عـن عـدم أمـل الرجوع إلى الحقّ... لذلك لانجد في هذه الخطبة مـا وجـدنا فـي سابقتها من الإشارة إلى أنّ القوم من حماة الدين.

صحيح أنّ الاجتماع خاصّ بالنساء، إلّا أنّ النصّ يتحدّث عـن رجال النساء، و اليأس ـ كما لاحظنا ـ من رجوعهم إلى الحقّ.

و نواجه الاستعارة الأخرى الّتي تبعتها و هي (شـنأتهم بـعد أن سبرتهم)، و هذه الاستعارة تتماثل أو تشابه سابقتها (لفظتهم بعد أن عجمتهم) من حيث التجربة السلبيّة الّتي خبرتهاعليها السلام مع القوم، إلّا أنّ ثمّة فارقاً دقيقاً بينهما هو: درجـة البـغض و الاخـتبار، حـيث أنّ البغض و الاختبار هما مادّة الاستعارتين إلّا أنّ الفارق في الدرجة كما قلنا، ذلك بأنّ الشنآن هو بغض مع عداوة، و السبر اختبار مـع دقّة في التجريب، أو تفصيل في جزئيّاته، و هذا يـعني أنّ الخـطبة (تنامت) فنّيّاً فتحدّثت عن البغض و الاختبار بدرجةما، أو لنقل إنّها درجـة المـنحني المـتوسّط، بـالنسبة إلى الاسـتعارة الأولى، ثـمّ تصاعدت الدرجة تبعاً لاستمراريّة السلوك لدى القوم، فتصاعدت هاتان الفعّاليّتان أيضاً،...

* * *

و نتّجه إلى مقطع جديد هو: (فقبحاً لفلول الحدّ (لأفـون الرأي

و خطل القول)، و اللعب بعد الجدّ، و قرع الصفاة، و صدع القناة، و خطل الآراء و زلل الأهواء) ... هذا المقطع ضفيرة من الاستعارات المتتابعة و الإيقاعات المتوازنة و المتعاقبة حيث تسهم هذه السلسلة اللغويّة المتتابعة المصوّرة الموقّعة (الايقاع) في تصعيد الإثارة الفنّيّة، و من ثمّ تصعيد الإثارة الدلاليّة الّتي يستهدفها النصّ.

و أمّا بنائيّاً، فإنّ هذا المقطع (نموّ) للمرحلة السابقة، إنّه يقدّم السبب الكامن وراء النبذ (لفظتهم) لهؤلاء القوم حيث اتّسموا (وفقاً لهذا المقطع) بفلول الحدّ أو أُفون الرأي ... الخ.

إنّ النصّ يستهدف الإشارة إلى خطأ و خطيئة الموقف الّذي صدر عنه القوم في إبعادهم الإمام عليّﻋﻠﻴﻪ‌السلام عن الموقع الّذي انتخبه اللّه تعالى ... و هذا الخطأ (و هو خطأ الرأي)، و الخطيئة (و هي الانصياع وراء الهدى): هذان الموضوعان قد رسمتهما الخطبة وفق مجموعة فائقة من الاستعارات و الإيقاعات و التتابع ... فبالنسبة إلى الاستعارة الأولى و هي (فقبحاً لفلول الحدّ) أو حسب نسخة أُخرى (لأُفون الرأي و خطل القول)، نحتمل فنّيّاً، أنّ الاستعارة الأولى هي الأصحّ، و أنّ الأُخرى ليست منها، و ذلك لسببين فنّيين: الأوّل هو سبب إيقاعي و الآخر دلالي، أمّا الإيقاعي فلأنّ الاستعارة التالية للأولى و هي (اللعب بعد الجدّ) تتناسب من حيث الفاصلة أو القافية الموحّدة، حيث تتوحّد فاصلة (الحدّ) مع فاصلة (الجدّ) بل

تتصاعد جمالياً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّهما أي الفاصلتين متوازنتان ليست في الروّي فحسب بل في المفردتين (الحدّ و الجدّ)، ليس هذا فحسب، بل لتجانسهما وفق نمطين: أحدهما الرسم حيث أنّ حرفي الجيم و الحاء تكتبان برسم واحد، و الآخر الجناس التام بينهما ... يضاف إلى ذلك، أنّ الاستعارات الأُخرى تمضي موحّدة الفاصلة فيما بعد، مثل (الصفاة، القناة)، و أولئك جميعاً يقوّي ذهابنا إلى أنّ الجملة الأولى هي الأصحّ ... و هذا من حيث الدليل الإيقاعي ... و أمّا من حيث الدلالة، فإنّ (فلول الحدّ) و هي الاستعارة الأولى تشير إلى أنّ السيف قد انثلم، و عندما ينثلم يتعطّل حدّه من العمل، و هذا ما يتناسب مع ظاهرة اللعب بعد الجدّ، (و هي الاستعارة التالية لما سبق)، بصفة أنّ الأصل هو «الجدّ» بالنسبة إلى سلوك الإنسان في الحياة، و أمّا «اللعب» فهو موقف لامسؤول. و كذلك السيف، فالأصل بأن يكون ذا حدّ ليعمل عمله و هو البتر، فإذا انثلم، فَقَدَ فاعليّته ...

المهمّ، نتّجه بعد ذلك إلى الاستعارتين التاليتين لما سبق، و هما (قرع الصفاة) و (صدع القناة)، ثمّ ما تليهما أيضاً و هما (خطل الآراء)، و (زلل الأهواء) ... هنا، ينبغي ألّا نغفل من الإشارة جديداً إلى البناء الإيقاعي لهذا المقطع أساساً، أي المقطع المؤلّف من ستّ استعارات أو جمل أو وحدات لغويّة، حيث تتوزّع هندسيّاً في جملة سمات، منها:

ـانتظام ذلك في وحدتين لغـوّيتين (الحـدّ، الجـدّ) و (الصـفاة، القناة) و (الآراء، الأهواء).

ـالتوازن بـين المـفردتين الأخـيرتين (خـطل، زلل) و (قـرع، صدع).

ـالتـــوازن بـين المـفردات (عـدديّاً) بـالنسبة إلى الوحـدتين المتجانستين، ...

و إذا تركنا هذا الجانب الإيقاعي، و اتّجهنا إلى الجانب الصوري، نواجه جملة سمات فنيّة على نحو ما نبدأ بتوضيحه ...

بـالنسبة إلى الوحـدة اللـغويّة الأولى (اسـتعارة فـلول الحـدّ) و (استعارة اللعب بعد الجدّ)، نجد أنّ الخطبة بصدد الانقلاب الّذي حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله تبعاً لقوله تعالى (أفإن مـات أو قـتل انقلبتم على أعقابكم)، حـيث صـاغت الخـطبة لهـذا المـوقف أو الحدث و ما سبقه و لحقه من المواقف و الأحـداث جـملة رمـوز و استعارات، منها استعارة (فقبحاً لفلول الحدّ) بصفة أنّ الحـدّ هـو الموقف الإسلامي في حياة النـبيّ صلى الله عليه وآله، و أنّ الصـحابة (و إن كـان البعض منهم منافقاً في الظاهر، و آخر مـنافق فـي البـاطن) إلّا أنّ السمة الإيجابيّة لهذه الشرعيّة هي الغالبة في الظاهر، و حينئذ فإنّ موقف المؤمنين يجسّد (سيفاً حـادّاً)، إنّـها دمـغت هـذا المـوقف المنقلب بالقبح، و استعارت له ـكما لاحظنا ـ فلول الحدّ. و أهمّيّة

هذه الاستعارة تتمثّل في ظاهرة (القتال) لافي سواها، لأنّ المسألة هي (انقلاب سياسي) ينسجم مع ظاهرة المعركة أو القتال في استعارة السيف: بصفة أنّ القتال نمطان: بالسيف و بالموقف.

أمّا الصورة الأخرى، و هي تنتسب إلى الرمز أكثر منها إلى الاستعارة و هي صورة (الجدّ بعد اللعب)، فتجسّد (نموّاً) عضويّاً للصورة الأولى، فالسيف بعد أن فُلّ حدّه: انتهت فاعليّته، و بذلك يتحوّل الموقف من (جدّ) في حياة النبيّ صلى الله عليه و آله إلى (لعب = انقلاب) بعد وفاته، و لاأدلّ أو أكثر دقّة من هذا الرمز في رسم الانقلاب الحادث بعد وفاته صلى الله عليه و آله: لأنّ استمراريّة الإمامة للنبوّة هي الموقف الجدّي المطلوب، و ما عداه فهو لعب، أي عدم إحساس بالمسؤوليّة، فيكون عدم الإحساس ممارسة عبثيّة، ممارسة لعب ...

إذن: كم كانت هذه الصورة الرمزيّة ذات طرافة و عمق و إثارة!!

* * *

و نتّجه إلى الوحدة اللغويّة الثانية المتضمّنة بدورها لصورتين هما: (قرع الصفاة) و (صدع القناة) ... و هاتان الصورتان فيما يبدو صورتان (تضمينيّتان)، أي إنّهما (تناص) بحسب اللغة النقديّة الجديدة، حيث تستخدم الأولى رمزاً لما هو معيب: فيقال له صلد، و القرع من الدقّ فيكون انثلاماً فيه ... و الأمر نفسه بالنسبة إلى

الصورة (التناصيّة) الأُخرى (صدع القناة)، فالصدع هو الشقّ، و القناة هي عود الرمح، فإذا شقّ العود: فَقَد فاعليّته في الضرب. إذن: الصورتان ترمزان إلى موقف سلبيّ يقفه هؤلاء القوم من الإمامة الّتي نسبها اللّه تعالى لعليّ عليه السلام و ذرّيّته عليهم السلام. يبقى أن نتساءل عن النموّ العضوي لهاتين الصورتين من حيث علاقتهما بسابقتيهما، فيما يمكن الذهاب إلى أنّ الصورتين السابقتين رسمتا الموقف في بداية ملامحه السلبيّة فمثلاً في ثلمة السيف و اللعب لأنّ الثلمة لاتشلّ السيف عن فعّاليّته تماماً، و اللعب لايحتجز الجدّ تماماً، و لكنّ القرع و الصدع فيمثّلان مدىً أبعد في فقدان الفاعليّة مع ملاحظة أنّ أوّلهما (القرع) يرمز إلى ما هو معنويّ، و الآخر (الصدع) يرمز إلى ما هو مادّيّ أو حركيّ، أي: يرمزان إلى الموقف الفكري و العملي.

و أمّا الصورتان المجسّدتان للوحدة اللغويّة الثالثة فهما تطوير لعمليّة النموّ العضوي في تدرّجها السابق، حيث تحدّثتا بصراحة و وضوح عن الموقف، و لم تتغلغلا في التركيب الصوريّ التخيّلي بل تحدّثتا عن لغة تقرب من المباشرة، و نعني بهما صورتي: (خطل الآراء) و (زلل الأهواء)... و يمكن الذهاب إلى أنّ الخطل و الزلل يجسّدان السلوك السلبي بأدقّ مستوياته، بصفة أنّ الإنسان ـ ما عدا المعصوم عليه السلام ـ يصدر عادة عن نمطين من السلوك السلبي، هما

(الخطأ) و (الخطيئة)، فالأوّل سلوك غير متعمّد يصدر الشخص عنه لقصور في إدراك الشيء، و الآخر سلوك متعمّد ينتسب إلى المعصية: كالباحث عن الجاه أو الموقع الاجتماعي مع معرفته بأنّه ليس أهلاً لذلك. و المهمّ أنّ الخطبة قد انتبهت على الجانب المذكور من تركيبة البشر، فرسمت السلوك بنمطيه المجسّدين للخطأ و للخطيئة، و هما ما عبّرت الصورتان عنهما (خطل الرأي) و (زلل الهوى)، حيث انسحب هذان السلوكان على القوم في موقفهما من الإمامة. و يجب ألّا نغفل عن صيغة الجمع الّتي استخدمتها الخطبة (أي الآراء و الأهواء) نظراً لاختلاف القوم في ذلك.

و هذا كلّه من حيث الصورة ... و أمّا من حيث الإيقاع: فقد لاحظنا مستوياته، فيما لا حاجة إلى إعادة الكلام فيه.

و نتّجه إلى مقطع جديد هو:

(لاجرم و اللّه،

لقد قلّدتم ربقتها

و حملتم أوقتها

و شنّت عليكم غارتها

فجدعاً، و عقراً، و بُعداً للقوم الظالمين)

هذا المقطع تكملة لسابقه أو تتويج، فبعد التوضيح لأسباب البغض، أوضحت المسؤوليّة المترتّبة عليهم، حيث اتّكأت على

القسم من جديد، و أضافت عبارة (لاجرم) و هي عبارة للتأكيد و نفي الضدّ، فتكون العبارة ـإذن ـ محمّلة بالضخامة المتناسبة مع ضخامة المسؤوليّة ... و يلاحظ: أنّ ثلاث استعارات قد اعتمدها المقطع أوّلاً لتوضيح المسؤوليّة، أولاها: (قلّدتم ربقتها)، و الربقة هي العروة في الحبل، و هي رمز للشدّ الوثيق. و أمّا التقليد ضمن القلّادة الّتي تطوّق العنق، و بذلك يكون النصّ قد أوضح بأنّ الممارسة الّتي صدرت عنهم لاينكأ لها جرم لأنّها أحكمت الشدّ من حيث العار المترتّب على الموقف.

و أمّا الاستعارة الثانية (حملتم أوقتها)، فالأوق هو الثقل و الشؤم، حيث تضيف هذه الاستعارة إلى سابقتها (الشؤم) فتكون عضويّاً (منمّية) لسابقتها بزيادة (الشؤم) ... و أمّا الاستعارة الثالثة (شنّت عليكم غارتها) فتعدّ بدورها إنماء لسابقتها لأنّها التتويج لما تقدّم، بصفة أنّ العار الّذي حملتهم إيّاه قد طوّقتهم من جميع الجهات، لأنّ شنّ الغارة يعني: إرسالها من الجهات جميعاً. و سواء أكانت الاستعارة هي (الغار) أو (العار) كما في بعض النسخ، فالدلالة تنسحب على كلا الوجهين (و إن كنّا نرجّح الغارة) بسبب التناسب إيقاعيّاً مع الاستعارتين السابقتين.

بعد ذلك يختم المقطع بثلاث مفردات (حُكميّة) لها، أي: إصدار الحكم على الجماعة من خلال ما يطلق عليه مصطلح (الدعاء)

بحسب اللغة البلاغيّة، حيث أنّ المألوف هو استخدام إحداها كمفردة (بعداً للقوم الظالمين)، إلّا أنّ إيراد ثلاث، يعني: أنّ دعاءها عليها السلام عليه بلغ قمّة ما يمكن تصوّره: نظراً لضخامة الموقف السلبي و مجانسته للدعاء عليهم. و من البيّن أنّ الدعاء الأوّل (جدعاً) هو مقطع الأنف أو الأُذن أو الشفة، و الأوّل هو المستخدم في التعبير. و أمّا (عقراً) فيعني الهلاك. و أمّا (بعداً) فيعني بعد اللّه تعالى عن القوم. و هذه الثلاثة من الأدعية أو الثلاث من المفردات تخضع لتسلسل نمائيّ أيضاً، فالأولى تعبير عن العار الّذي لحق بهم، و الثانية مترتّبة على ممارسة ذلك، و الثالثة: الجزاء المترتّب أُخرويّاً و هو بُعد اللّه تعالى عنهم.

* * *

و نواجه مقطعاً جديداً يعتمد أسلوباً آخر من العرض يقوم على التساؤل و التعجّب و نحوهما من الأدوات المستخدمة في إثارة المتلقّي على هذا النحو:

(ويحهم: أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة و قواعد النبوّة والدلالة، و مهبط الروح الأمين، و الطبين بأمر الدنيا و الدين، ألا ذلك هو الخسران المبين...)

واضح، أنّ هذا المنحى الفنّي المشحون بالإثارة من خلال أدوات جماليّة متنوّعة صوريّاً و إيقاعيّاً و لفظيّاً يجسّد لغة فنّيّة

يـتحسّسها المـتذوّق بـوضوح، حـيث اتّسـم ـبـالإضافة إلى مـا لاحظناه ـبوضوح العبارة، و سلاسة الصورة، طالما يتحدّث المقطع عن الإمامة من حيث التفريط بها فيما يتطلّب الموقف لغـة تـتّسم بالوضوح، و صوراً تتّسم باليُسر، و أدوات تـتّسم بـالإثارة ... الخ، فضلاً عن (التناص) الّذي خُتم به المقطع و نعني بـه: التـوكّؤ عـلى النصّ القرآني الكريم في إلحاق الخسران المبين بالقوم، و فضلاً عن الأداة الحكميّة (ويحهم) حيث استهلّ المقطع بـها، و قـد اخـتيرت بحذائه لأنّها تتضمّن أكثر من سمة فنّيّة، منها: أنّها ليست دعاء مثل (بعداً)، و لا تعجّباً صرفاً أو ذمّاً صرفاً، بل هي مزيج مـن التـعجّب و التساؤل و الذمّ كما هو بيّن. و هي سمات تتساند فيما بينها لتطبع صياغة النصّ بما هو مثير و مدهش ... و أمّا الصورة فإنّ طـرافـتها و وضـوحها المـدعمين بـالتعجّب و التسـاؤل مـثل عـبارة (أنّـى زعزعوها عن رواسي الرسالة)، تظلّ من الصور المثيرة حقّاً، إنّـها ـدلاليّاً ـ ربطت الإمامة بالرسالة النبويّة، و أردفتها باستعارة ثانية هي (القواعد) و (النبوّة)أي: إنّ الإمامة بصفتها استمراراً للـنبوّة، إلّا أنّها استخدمت ثلاث عبارات كلّ واحدة منها لهـا دلالتـها: الأولى هي (الرواسي) و (الرسالة)، و الثانية هـي (القـواعـد) و (النـبوّة)، و الثالثة هي (المهبط) و (الروح)، ... و هـذا يـعني أنّ الخـطبة قـد انتخبت طرفي الاستعارة: كلّاً في نطاق خاصّ، أي: الطـرف الأوّل

و هو (الروح الأمين): (النبوّة و الرسالة)، و الطرف الآخر فيما استعير له و هو (الرواسي) (القواعد) (المهبط)، و هذا يتطلّب جانباً من الوضوح ... بالنسبة إلى الرسالة و انتخابها أوّلاً فلأنّها المتقدّمة أصلاً لأنّها امتداد للرسالات السابقة، (لأنّها هي المبادئ المرسومة للبشريّة جميعاً)، و أمّا النبوّة فتليها في المرحلة لأنّها تحديد لنمط الرسالة، و أمّا الوحي فمرحلة ثالثة من حيث التخصيص فيما تضطلع بتوصيل المبادئ مباشرة.

و هذا من حيث التسلسل الدلالي لظاهرة مبادئ السماء و توصيلها ... أمّا من حيث صلة (الرواسي) ... الخ بكلّ منها، فيمكن الذهاب إلى أنّ الرسالة بصفتها مبادئ إجماليّة عامّة فإنّها تتناسب مع (الرسوّ) أي الثبات (الثوابت مقابل المتغيّرات) بصفة أنّ الرسالات ثابتة في الأزمان جميعاً، و امتداد الإمامة لنبوّة محمّد صلى الله عليه و آله ينبغي أن (تثبت) أيضاً، فلماذا زُعزِعت؟؟ هذا ما جعل الخطبة متسائلة، متعجّبة، مستفهمة، ... الخ. و أمّا النبوّة و صلتها بالقواعد فأمر من الوضوح بمكان، حيث أنّها ختام النبوّات، و هذا يحتاج إلى «قواعد» تحقّق استمراريّة فاعليّتها لااستمراريّة النبوّة ذاتها، حيث ختمت بوفاته صلى الله عليه و آله، و لكن بما أنّه لانبيّ بعده صلى الله عليه و آله، حينئذ فإنّ الإمامة استمرار للنبوّة، فيكون الوحي مرتبطاً بها، و هو تأكيد لمشروعيّة و استمراريّة الإمامة ... و أخيراً: خُتم المقطع بفقرة

مباشرة واضحة هي أنّ الإمام عليه السلام هو الفطن الحاذق بـمهمّات أداء الرسالة الاستمراريّة (الإمامة)، و هـذا تـتويج واضـح لمشـروعيّة الأمانة ذاتها ... و قد ركّزت الخطبة على الدين و الدنيا جميعاً لنكتة دلاليّة خاصّة هي: أنّ القيادة السياسيّة للمجتمعات، تحتاج إلى من يمتلك مخزوناً معرفيّاً (علميّاً و اجتماعيّاً)، و أحدها لايكفي بدون الآخر، و هذا ما عرضت الخطبة له من حـيث إشـارتها إلى الدنـيا و الدين.

* * *

بعد ذلك، تتقدّم الخطبة لتبيّن سبب عـدول القـوم عـن الإمـام علي عليه السلام، كما تبيّن النتائج المترتّبة على ذلك، حيث تساءلت أوّلاً: لماذا نقموا من الإمام علي عليه السلام؟ و تجيب:

(نقموا و اللّه منه نكير سيفه، و قلّة مـبالاته بـحتفه، و شـدّة وطأته، ونكال وقعته، و تنمّره في ذات اللّه عزّ و جلّ...الخ)

لقد رسمت الخطبة ملامح شخصيّة الإمام عليه السلام (و هو سمة فـنّيّة نمائيّة) وفق البطولة الروحـيّة و الجسـميّة، و قـد قـدّمت السـمة الجسميّة أو الشجاعة و رمزت لذلك بالسيف لجملة أسباب، منها: أنّه كان الساعد الأيمن للنبيّ صلى الله عليه و آله في معاركه مع المشركين، و منها: قتله لكبار المقاتلين المشركين، و يكفي أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله ذاتـه أشـاد بمعطيات ذلك عندما شبّه بطولته بأنّها تعادل عبادة الثقلين ...

هذه الأسباب الّتي يرتبط فيها ما هو (عسكريّ) بما هو (عقائديّ)، تجعل من شخصيّة الإمام عليه السلام عند من لم تتغلغل جذور الإيمان لديه موضع حسد، مضافاً إلى قربه من النبيّ نسباً و ذاتاً، و ظفره بالنصر العسكري، و بكونه باب مدينته صلى الله عليه وآله ... الخ، تجعله عند من نافق أو كان أساساً ضعيف الإيمان موضع حقد (كالشخصيّات الأمويّة مثلاً) ... و المهمّ، أنّ رسم شجاعته في الخطبة يحمل مسوّغاته المذكورة، و من ثمّ فإنّ السمات الأُخرى يظلّ بعضها بدوره مرتبطاً بالسمة المذكورة، و منها: قلّة مبالاته بحتفه، حيث أنّ هذه السمة تحمل مهمّتين مزدوجتين: الشجاعة و الإيمان فيما لايبالي بالموت من أجل اللّه تعالى.

و هكذا بالنسبة إلى سائر السمات مثل (شدّة وطأته) و (نكال وقعته) ... هذه السمات ليست إضافيّة و ترادفيّة بل تحمل كلّ منها دلالتها، فشدّة وطأته هي رمز لعمق الأخذة، و نكال وقعته هو: رمز لعمق الضربة، و الأولى سمة نفسيّة، و الأخرى سمة جسميّة، و أخيراً: جاءت صورة (و تنمّره في ذات اللّه تعالى) هي التتويج العضوي للسمات السابقة، حيث أنّ غضبه في المعارك هو من أجل اللّه تعالى سواء أكانت المعارك عسكريّة أم احتجاجيّة مثلاً ... الخ.

* * *

نواجه مقطعاً جديداً هو امتداد لسابقه، حيث استهلّ بظاهرة

القَسَم، و هي ظاهرة تتكرّر لتشكّل أحد خطوط البناء العماري للخطبة. و يجيء المقطع لرسم ملامح شخصيّة الإمام عليه السلام من خلال سماته العباديّة العامّة بعد أن قلنا أنّ الرسم لسماته البطوليّة فرضه السياق و هو حسد و حقد المنحرفين عليه.

المهمّ، أنّ أوّل الخطوط المرسومة هو (القَسَم) كما قلنا، حيث يحمل دلالة ضخمة عندما تصدر عن المعصوم بخاصّة، لأنّ المعصوم يتحرّج من القسم إلّا في ما يتطلّبه الموقف، و هذا القَسَم قد ارتبط بظاهرة خصّصت الخطبة لها مكاناً مستقلّاً (و إلّا فهناك سمات أو ظواهر كثيرة جديرة بأن تُرسَم)، و لكنّ التنصيص على هذه الظاهرة دون سواها له مغزاه الجمالي و الدلالي، ألا و هي: أنّ الناس لو مالوا عن الحقّ لأجبرهم على اتّباعه ... طبيعيّاً، أنّ اللجوء إلى تقرير هذه الحقيقة إنّما هو جواب فنّيّ للعبارة السابقة القائلة أنّ الناس إنّما نقموا منه عليه السلام لنكير سيفه و تنمّره في ذات اللّه تعالى، أي إنّ تنمّره في ذات اللّه تعالى أحد تجسيداته يتمثّل في تصميمه على إجبار الناس على اتّباع الحقّ لو مالوا عنه.

هذا من الزاوية البنائيّة للنصّ ...

و أمّا من زاوية الصياغة الصوريّة، فقد رمز للحقّ المشار إليه أو انتخب له وحدتين تعبيريّتين هما (الحجّة اللائمة) و (الحجّة الواضحة)، حيث قالت الخطبة (لو مالوا عن الحجّة اللائمة) و زالوا

عن قبول الحجّة الواضحة (لردّهم إليها، و حملهم عليها)...

و المهمّ هو ملاحظة السمات الفنيّة لهاتين الصورتين ...

إنّ أوّل ما يواجهنا من ذلك هو: التكرار للحجّة بين الميل عنها و زوال القبول عنها، التكرار لكونها واضحة، ثمّ كونها لائحة، ثمّ لانصياع الناس إليها، حيث قال في الأولى (ردّهم إليها) و في الثانية (حملهم عليها)، و حينئذ ثمّة جماليّة في صياغة الإيقاع من خلال التكرار المتقدّم، و هو نمطان: دلالي و إيقاعي، فهناك (الحجّة الواضحة)، و هناك (الحجّة اللائمة)... و هنالك (لو مالوا عنها) و هناك (لو زالوا عنها) فضلاً عن تكرار القَسَم... و حينئذ فإنّ البناء الإيقاعي يتحدّد وفق هذه الصيغة:

ـ الحجّة ـ الحجّة

ـ الواضحة ـ اللائحة

ـ مالوا ـ زالوا

ـ إليها ـ عليها

قبالة هذا التوازن الإيقاعي، ثمّة دلالة متوازنة هندسيّاً على هذا النحو:

ـ فرضيّة الميل عن الحجّة اللائحة، و فرضيّة الزوال عن قبول الحجّة الواضحة، فماذا يعني هذان التكراران للحجّة و الميل و الزوال و الردّ و الحمل؟

في تصوّرنا: إنّ الصورة الأولى و هي (الحجّة) ـ أي جادة الطريق أو وسطه ـ قد اتّخذها النصّ رمزاً للحقّ، و اتّخاذ الجادّة دون سواها يعني السير فيها و هو يتناسب تماماً مع مسير الحقّ حيث يتيه البعض و حيث يهتدي البعض الآخر، و أمّا وسط الطريق فلأنّه المسير في الغالب، أي يمشى وسط الطريق.

و لذلك قالت (و لو مالوا عن الحجّة) أي عن طريق الحقّ: و أمّا بالنسبة إلى صفتها (اللائحة) فلأنّها تلوح أمام الرائي، و كذلك الحقّ المرئي ... إذن (الميل) يتناسب مع العدول عن الشيء، أي: الانحراف عنه، و الحجّة تتناسب مع الحقّ، و اللوح يتناسب مع الرؤية.

و أمّا الوحدة اللغويّة القائلة (و زالوا عن قبول الحجّة الواضحة) فمن البيّن أنّ الحجّة هي رمز للدليل و البرهان، حيث أنّ الحقّ قد يحتاج إلى إقامة البراهين و الأدلّة على إثباته، و لذلك ذكر النصّ بأنّها (الحجّة الواضحة) أي البراهين الواضحة ... و أمّا الزوال عن قبولها فأمر يتّضح أيضاً نظراً لإمكانيّة قبول أو عدم قبول البرهان.

يبقى أن نشير أخيراً إلى صورتي (و ردّهم إليها) و (حملهم عليها)، فأمّا الردّ فيعني أنّ الإمام عليه السلام يقنعهم من خلال الحجّة بالحقّ، و ليس هذا فحسب بل يحملهم على ذلك، أي: لايتردّد البتّة

في تطبيق الحقّ مهما كان الموقف حرجاً بالنسبة إلى المعايير الاجتماعيّة.

* * *

و نواجه مقطعاً جديداً يُستهلّ بالقَسَم أيضاً (تاللّه) اتّساقاً مع عمارة الخطبة في مواقع القَسَم منها، مضافاً إلى التجانس الدلالي بين القَسَم الجديد الّذي يتحدّث عن الحقّ أيضاً و لكن في سياق آخر، يقول النصّ:

(و تاللّه لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول اللّهصلى الله عليه و آله لاعتقله، و لسار بهم سيراً سجحاً، لايكلّم خشاشة، و لايكلّ سائره، و لايملّ راكبه)

و في نسخة «لايتعتع»، إلّا أنّ الأوّل أولى للتجانس الإيقاعي بين (يكلّ) و (يملّ)...

إنّ هذا المقطع و ما بعده هو تنام عضويّ للسابق، لأنّ السابق يتحدّث عن ثبات شخصيّتهعليه السلام. أمّا الآن فصاعداً فيتحدّث عن معطيات الثبات المذكور (كما في نصّ آخر)، حيث أنّ الزمام في الواقع يتناسب تماماً مع محتويات هذا المقطع (لايكلّم خشاشة، لايكلّ سائره، لايملّ راكبه) فيما تتّسق هذه الصور مع ظاهرة الزمام (المقاد) فالخشاش ما يجعل في أنف البعير لشدّ الزمام ليكون انقياده سريعاً، و الكلم هو الجموح، و بهذا تكون الصور دلاليّاً على هذا النحو:

١. الزمام: رمزاً لإعطاء الأمر بيد الشخص، حيث تستهدف الصورة، الذهاب إلى أنّ الآخرين بسبب ضعف إيمانهم و شخصيّتهم لو امتنعوا من مسك الزمام لأمسكهعليه السلام، و من ثمّ:

٢. سار بهم سيراً سجحاً، أي ليّناً سهلاً. و هو أمر يرتبط بالزمام و قياده، حيث أنّ القائد للزمام نظراً لمعرفته بكيفيّة السوق، يجعل ذلك سهلاً لاصعوبة في انقياد الجَمَل له. ليس هذا فحسب، بل:

٣. لايكلّم خشاشة: لايجرح موضع شدّ الحبل من أنفه، لمعرفته دقيقاً بكيفيّة المسك و كيفيّة السير بليونة بحيث لايجرح، لأنّ القائد حينما يجهل، من الممكن أن يُتعب البعير و يعنف في حثّه على السير لدرجة أنّه يجرح أنفه من ضغطه الحبل أو شدّة المسك ... ثمّ:

٤. لايكلّ سائره و لايملّ راكبه: من الطبيعي، أنّ القيادة ترتبط بوجود القافلة ما بين سائر أو راكب فيما لايتعب السائر من المشي، و لايملّ الراكب من طول الجلوس.

هنا، يتعيّن علينا أن ندقّق النظر في هذه الصورة المدهشة فنّيّاً و دلاليّاً ... إنّها ليست صورة حسّيّة قد استعارت أو رمزت لحيوان خاصّ هو البعيد من حيث كونه وسيلة حركة، سواء أكنّا مع نصّ لم‌يرد فيه (تاللّه لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول اللّه لاعتقله) أو مع نصّ ورد فيه ذلك، ففي الحالة الأولى يكون «السير» هو الاستعارة للجَمَل، و من الحالة الثانية يكون «الزمام» ذلك. و المهمّ

هو ضخامة هـذا المـبنى الدلالي المـطروح. إنّـها مسألة (القـيادة السياسيّة) لمجتمع ما بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فتكون القيادة هي المستعار لها من حيث الزمام، أي: إنّ وفاته صلى الله عليه وآله أحدثت شـرخاً دون أدنـى شكّ، حيث لاشخصيّة نبويّة تـقوم مـقامها، و حـينئذ فـإنّ وجـود شخصيّة يرشّحها النبيّ صلى الله عليه وآله ذاته، يظلّ هو الحـلّ الأوحـد لتـلافي الشرخ، و هذا ما حدث بطبيعة الحال، عبر جملة مناسبات (مـنها: حادثة الغدير)، ... إنّ النصّ يستهدف الإشارة إلى أنّ الزمام الّـذي نبذه الرسول صلى الله عليه وآله إلى عليّ عليه السلام، أو الحقّ الّذي لم يستطع الآخـرون التوفّر عليه، لو سمح للإمام عليه السلام أن يضطلع بـه، لأدّى مـهمّته حـقّ الأداء، ثمّ:

ـ سار بهم سيراً سجحاً، ثمّ:

ـ لايكلّم خشاشة، ثمّ:

ـ لايكلّ سائره، ثمّ:

ـ لايملّ راكبه، ثمّ:

إنّ هذه المرحلة سوف تفضي في النهاية إلى (مقطع جديد، ورد فيه):

ـ لأوردهم منهلاً نميراً ...

ـ صافياً:

ـ رويّاً:

ـ فضفاضاً:

ـ تطفح ضفتاه:

ـ لايترنّق جانباه:

و لكن ماذا يحدث نتيجة ذلك؟ يحدث ما يلي:

ـ و لأصدرهم بطانا... الخ.

المهمّ، أن نبدأ فنلاحظ هذا المقطع الجديد من الخطبة بعد أن رسمنا هيكله البنائي العام، لكن قبل ذلك، يتعيّن ملاحظة المقطع الأسبق لنصله باللاحق.

طبيعيّاً، أنّ النصّ و هو وحدة عضويّة فائقة حيث انتخبت الخطبة ظاهرة (الرحلة) أو القافلة السائرة نحو هدف ما، و هذا هو هيكل النصّ، إلّا أنّنا لاحظنا في أحد مفاصل النصّ و (المقطع السابق) فيما بدأ بالقَسَم (تاللّه)، بينا سبقه قسم (و اللّه) ـ في مقطع متقدّم ـ و أحد القَسَمين غير الآخر لأنّ الأوّل أشدّ تأكيداً و هو يتناسب مع ما ترسمه الرحلة، لأنّها تبدأ بالإشارة إلى (الحجّة) الطريق أو الجادّة، ثمّ السير عليها من خلال الزمام أو عبارة (و لسار) حيث انتخب النصّ مفردات غير مباشرة أو مفردات مؤشّرة، و هذا هو سمة الفنّ حيث يسمح للمتلقّي بأن يملأ الفراغات الّتي تركها النصّ، و من ثمّ فإنّ الرحلة تبدأ بالإشارة إلى أنّها ـ نكرّر ـ تُحقّق:

ـ سيراً سجحاً، ليناً سهلاً، لامتاعب فيه، و هو المطلوب في

السفر، ثمّ:

ـ بالنسبة إلى الركّاب و المشاة حيث تنتظمها القافلة، و حتّى مع فرضيّة وجود الركّاب وحدهم، فإنّ النصّ قد ألمح إلى الواسطة و هي الجَمَل أو مطلق أداة الحمل، أنّه:

ـ لايكلّم خشاشة، أي لايُجرح، لأنّ السير إذا صحبه العنف فإنّ العضو ليُجرح كما قلنا. ثمّ لاتعب في السير: لأن توفّر وسائل الراحة لاتسمح بظهور التعب، و حتّى طول السير من خلال الركوب لايسبّب الملل.

طبيعيّاً، إنّ هذه الدقائق الّتي كرّرنا الإشارة إليها تعني أنّ الإمام عليه السلام من الفطنة بمكان يستطيع من خلاله أن يقود سفينة الإسلام إلى الشاطئ أو قافلته إلى المكان المستهدف بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، أي: مفهوم الإمامة و استمراريّتها. لذلك، فإنّ المقطع الجديد الّذي أجملنا خطوطه قبل سطور، يتّجه إلى توضيح النتائج المترتّبة على السير من خلال توفّر وسائل الراحة، و أمّا النتائج فهي:

ـ لأوردهم منهلاً نميراً...

ـ صافياً:

ـ رويّاً:... الخ.

إنّ الصور هنا (مألوفة) أوّلاً، حيث إنّ المنهل و فضفضته ... الخ

من الخبرات اليوميّة الّتي يواجهها الإنسان،... إلّا أنّه ـ بالرغم من أُلفتها ثمّ بالرغم من تواليها ـ و كأنّها متماثلة (روي، صفي، نمير، فضفاض) إلّا أنّ كلّ واحدة من هذه السمات تحمل دلالة خاصّة و ليست مجرّد عبارات أو صور مترادفة، فالنمير غير الصفاء، و هما غير الرواء، و هي جميعاً غير الفضفضة،... و بما أنّها عليها السلام في صدد التعريف بمعطيات الإمامة لعليّ عليه السلام حينئذ لابدّ أن تتنوّع هذه المعطيات بحيث تكون ريّاً، و نميراً، و صفاء،... الخ، أي أنّ دقّة المعطيات تطلّبت دقّة في صياغة الصور «فصفاء» الماء يحقّق نوعاً من الإشباع يختلف عن الإشباع الّذي يحقّقه حينما يكون «فضفاضاً»، فالحالة الأولى (نوعيّة) و الحالة الأُخرى (كمّيّة)، كذلك فإنّ المنهل حينما يكون (رويّاً) يختلف عن كونه (نميراً)، فالنمير هو الزكيّ من الماء، و أمّا (الرويّ) فهو ما يحقّق الإرواء الكامل للعطش، و الأوّل هو (نوعي) و الآخر (كمّي)، و هكذا...

إذن: جاءت هذه الصور (بالرغم من أُلفتها) ذات صياغة عميقة و مركّزة لاأثر فيها للكلام الزائد على الحاجة و هو أمر يتناسب مع الشخصيّات المصطفاة الّتي (تُعصم) من خطأ الكلام... كذلك نجد أنّ عنصر (الطرافة) مصحوباً بالعمق، يطبع هذه الصياغة الصوريّة،... فهي عليها السلام حينما رسمت صور المنهل: نميراً، صافياً، رويّاً، فضفاضاً، أتبعتهما بصورة تفصيليّة هي: أنّ هذا المنهل (تطفح

ضفتاه، و لا يترنّق جانباه) هذه الصورة: استكمال للصور السابقة وليست مجرّد تفصيل لاضرورة له، بل هو صورة ضروريّة لاستكمال المعطيات الّتي تستهدفعليها السلام توضيحها ... فالمنهل لايجسّد مجرّد تحقيق الإشباع المطلوب (من كونه نميراً أو ريّاً ... الخ) بل هو يفيض بمعطياته بحيث يحقّق الإشباع من جانب، و أنّه يفيض على البشريّة جميعاً و ليس على أحد أو طائفة أو مجتمع دون سواه: من جانب آخر، ... ليس هذا فحسب، ... بل إنّ هذا المنهل يتّسم بكونه دائم العطاء: لا أنّه يتوقّف حيناً أو يتكدّر، إنّه منهل (لايترنّق جانباه) بعد أن يكون منهلاً (تطفح ضفتاه)، إنّ ضفافه تطفح بالمعطيات، و هذه المعطيات لاتتوقّف و لايصيبها كدر ... إذن: كم جاءت هذه الصورة المألوفة جدّاً، محتشدة بعناصر (الطرافة) و (العمق) و (التنوّع)، متجانسة بذلك مع طبيعة المعطيات الّتي تستهدفعليها السلام بأن توضّح مستوياتها للقارئ ...

هنا، نجد شيئاً من الاختلاف في النسخ (في العبارات) لايسمح لنا بمواصلة التفسير الفنّي للصور و لا البناء العماري للنصّ. فثمّة نصّ يشير إلى أنّهعليه السلام (نصح لهم سرّاً أو إعلاناً) و هذا يتناسب مع كونهعليه السلام (أصدرهم بطاناً) من حيث الإيقاع، و لكنّه ـ من حيث المبنى الهندسي ـ يصعب علينا تفسيره و إن كان من الممكن الذهاب إلى أنّهعليه السلام حينما يصدّرهم بطاناً من حيث الشبع لما هو

خير لهم فإنّهعليه السلام يستمرّ في النصح لهم بما هو خير أيضاً ... بيد أنّ ثمّة نسخة قد تضمّنت هذا الكلام (قد تخيّر لهم الريّ غير متحلّ منه بطائل إلّا تغمّر الناهل و ردع سورة الساغب)، و هاتان الصورتان تشيران إلى أنّهعليه السلام عندما أصدرهم بطاناً لم يشبعهم المتاع الدنيوي أي بما هو زائد عن الحاجة بل بما هو كفاف من (ريّ الناهل) و (شبعة الكافل) أو (تغمّر الناهل) و (ردع سورة الساغب)، فهذه الصور جميعاً تحوم على مضمون واحد هو سدّ الحاجة أي بقدر ما يرفع الجوع و العطش: مع أنّه يتخيّر لهم الإشباع الكامل ...

المهمّ، إذا تجاوزنا هذا المقطع، نواجه (تناصاً) أو (تضميناً) للنصّ القرآني الكريم في ذهابه إلى اللّه تعالى بفتح بركات السماء للبشر في حالة ما إذا آمنوا ... بعدها، تتساءل الخطبة بعد أن أشارت إلى تخلّي القوم عن الإمامعليه السلام:

(إلى أيّ لجأ لجأوا، و إلى أيّ سناد استندوا، و بأيّ عروة تمسّكوا، وعلى أيّ ذرّيّة قدموا و احتنكوا، لبئس المولى و لبئس العشير و بئس للظالمين بدلاً، استبدلوا... الخ)

إنّ الحصيلة الصوريّة لهذا التساؤل المقترن بالإثارة هي أوّلاً: أنّ النصّ قدّم ضفائر من الصور، أوّلها مجمل أو عام أو كلّيّ هو (الملجأ)، ثمّ أحد مصاديقه (السناد) ثمّ المصداق الآخر (السناد)، ثمّ (العروة) ... فالملجأ هو المكان العام الّذي هُرع إليه القوم،

و السناد هو المتّكأ، بينا العماد هو ما يقام عليه، و أمّا العودة فهي ما يتمسّك به، ... و التدرّج أو التنامي لهذه الصور من الوضوح بمكان، فالهادف إلى مكان ما، يلجأ إليه أوّلاً ثمّ يجلس و يستند، ثمّ يعتمد عليه، ثمّ يتمسّك به ... هذا إلى أنّ الصورة الأخيرة (العروة) هي تناص غير مباشر أو تعبير يستوعب لمفهوم النجاة بكلّ أو بأدقّ أشكاله ... و لكنّ النصّ ـ و هو ما يتساءل بمرارة ـ عن هذه الممارسات السلبيّة، يختمها بعبارة (و على أيّ ذرّيّة قدموا و احتنكوا) ـ أي: استولوا ـ لبئس المولى و لبئس العشير، و بئس للظالمين بدلاً ...) محقّقاً بهذا هدف الصور المشار إليها، و هو عمليّة (الاستبدال) أو التخلّي عن (مفهوم الإمامة و امتداداتها) و اللجوء إلى ما هو بائس على نحو ما توضّحه عبارات صوريّة لاحقة (استبدلوا ـ و اللّه ـ الذنابي بالقوادم، و العجز بالكاهل ...) هذا و لا تخفى الأهمّيّة الفنّيّة لهذه التناصات الّتي تشير إلى ما هو بائس (لبئس المولى و لبئس العشير و بئس للظالمين بدلاً ...) و هذا التناص إنماء عضويّ لاستبدال السناد و العماد ... الخ، ببدل آخر هو (بئس المولى ... الخ)، حيث يتّجه النصّ إلى إنماء عضويّ آخر هو: توضيحه على النحو الّذي لاحظناه فيما بعد، أي: توضيح عمليّة الاستبدال، فختامه في (استبدلوا ـ و اللّه الذنابى ... الخ)، أي تخلّوا عن (الجناح) و اتّجهوا إلى الأسفل، و هاتان استعارتان أو رمزان من

الدقّة بمكان، حيث أنّ الجناح هو للطيران، و الكاهل هو للـحمل، و أحدهما مكمّل للآخر فـي مـمارسة النشـاط الإنسـاني العـام. و لانغفل من ظاهرة القسم أيضاً، حيث تكرّرت مع كلّ مقطع جديد، لتنظم في بناء عماريّ محكم و ممتع، بالنحو الّـذي لاحـظناه فـي بداية المقطع الّذي عرض لظاهرة الاستبدال ... ثمّ يتّجه النـصّ إلى تعقيب و مقطع تختم به الخطبة، على هذا النحو:

يقول التعقيب:

(فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، ألا إنّهم المفسدون و لكن لايشعرون، ويحهم: أفمن يهدي إلى الحقّ أحـقّ أن يتّبع أم من لايهدي إلّا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون)...

هذا التعقيب ينطوي على جملة سمات فنّيّة، كالدعاء (فـرغماً) و التساؤل (ويحهم) و التعجّب (أفـمن ...) و التـناص بـالنسبة إلى الآيتين الكريمتين ...

و أمّا الختام فيفتتح مقطعه بالقَسَم تساوقاً مع المـقاطع جـميعاً بالنحو الّذي لاحظناه بنائيّاً، إلّا أنّ القَسَم الجديد يتأرجح بين قسم باللّه عبر صياغة جديدة (لعـمر إلـهك) أو ذاتـيّ (لعـمري)، و فـي الحالين، فإنّ القَسَم بعامّة يحتلّ موقعه الهندسي فيفرض جـماليّته على البناء العام للخطبة، و أمّا الخصوصيّتان اللّتان يتأرجح بـينهما القَسَم، فإنّ للتهديد أو النـتائج الحـتميّة الّـتي لوّحت الخـطبة بـها

مسوّغاً لذلك، اعتمدت (القَسَم ـ العمر) دون غيره، لأنّ القَسَم بالعمر ـ و هو الدين هنا ـ يرتبط بالسلوك العبادي للأشخاص أو يرتبط بدين اللّه تعالى بالنسبة إلى اللّه تعالى و لزوم دينه من حيث السلوك البشري، ففي الحالتين سواء أكان القَسَم (لعمر إلهك) أو (لعمري) فإنّ الدين يظلّ هو المستهدف، و أمّا بالنسبة إلى انتخاب (الإله) دون سواه من الاصطلاحات المفصحة عن (اللّه تعالى) فلأنّ الإله يرتبط بمفهوم (المعبود)، و أنّ الموضوع المستهدف هو السلوك العبادي المفروض على العباد، حينئذ يحمل مسوّغه الفنّيّ في انتخاب القسم و موضوعه ... و المهمّ ـ بعد ذلك ـ أنّ القسم ـ كما أشرنا وكرّرنا ـ يحتلّ موقعاً هندسيّاً له جماليّته و دلالته في مفاصل الخطبة بالنحو الّذي لاحظناه ...

و إذا تجاوزنا ظاهرة القَسَم إلى الموضوع ذاته، نجد مجموعة ضفائر صوريّة (و الصورة هي المادّة أو البطانة لموضوع الخطبة مقابل الإيقاع الّذي هو المظهر الخارجي للمادّة) ... هذه الصور تبدأ بهذا النحو:

(لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج، ثمّ احتلبوا ملْ (طلاع) العقب دماً عبيطاً و ذعافاً مبيداً (ممقراً) (ممضّاً)، و اطمأنّوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم و سطوة معتد غاشم و بهرج و إثم شامل واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً و جمعكم حصيداً، فيا

حسرة لكم و أنّى بكم وقد عميت عليكم الأبناء أنلزمكموها و أنتم لها كارهون)...

إنّ هذه الضفائر من الصور، تستهلّ بالصورة الاستمراريّـة (لقـد لقحت ...) اللقاح هو الحمل بالنسبة إلى الناقة، و النتاج هو ما تلده، و هذا يعني أنّ النصّ قد استعار النـاقة و مـا حـملت و مـا ولدت، الحمل هو: سلوك القـوم حـيال الإمـامة، و النـتاج هـو: المـصائر السوداء للقوم، ... إلّا أنّ النصّ رَسَم هذه الصورة وفق فراغات يجب أن يملأها المتلقّي، حيث صيغت الصورة بخطاب إلى القوم (فنَظِرة)، و هذا (تناص) للآية الكريمة (لانغفل أنّ التناص أو التضمين شكّل بنحو ملحوظ أحد خطوط العمارة للنصّ بـصفته جـزء مـن مـادّة الصورة، و مادّتها قسمان: الصورة التركيبيّة كـالاستعارة و الرمـز، و الصور المتوكّئة و هي (التضمين أو التناص) ... و المهمّ، أنّ الصورة التضمينيّة تقول: انتظروا يا قوم مصائركم السوداء ... ، قالت هذا بعد أن قرّرت بأنّ القضيّة (لقد لقحت)، ثمّ قالت: انـتظروا حـتّى تـضع حملها (فنظرة ريثما تنتج) ... هنا لم ترسم مباشرة: ماذا تضعه الناقة من المصائر بل أردفت ذلك بصورة جديدة هي (و احتلبوا دما ...) من هنا نبدأ فـنلاحظ النـتيجة المـترتّبة، حـيث انـتخبت ظـاهرة الاحتلاب، لأنّه الطعام بطبيعة الحال. و انتخبت القَدَح الكبير الّذي يوضع الحليب فيه لترمز به إلى كبر حجم المأساة الّتي سيواجهونها،

و انتخبت الدم العبيط لأنّه رمز للقتل، و انتخبت الذعاف المبيد لأنّه السمّ الّذي يترك أثره تدريجاً ليُهلك في النهاية، فيكون الدم و السمّ هما الوسيلتين لما يحدث من السوء ...

ثمّ ماذا؟

(و اطمئنّوا للفتنة جأشاً) و هذا هو التصريح بنمط السوء إزاء الفتنة الّتي لانزال نحياها إلى يومنا هذا بطبيعة الحال ... و لذلك استخدمت الخطبة عنصراً فنّيّاً جديداً يتناسب مع الموقف من خلال المصطلح (اطمئنّوا) أو (طامنوا) ألا و هو «السخريّة» (حيث تحتلّ السخريّة في الآداب المعاصرة بخاصّة فاعليّة فنّيّة ضخمة بل تشكّل في أحد أنماط النصّ الأدبي مادّة لها استقلاليّتها)، بمعنى أنّ حتميّة الفتنة، و لقد استعارت لها سمة (الجأش) و هو القلب أو الصدر، أي إنّها تقول: اطمئنّوا قلباً، أو اطمئنّوا تماماً إلى ما تحدث من الفتن ... ليس هذا فحسب بل ما يستتبع الفتن أو يوازيها و هو مجيء الطغاة الّذين لايرحمون فيما يتعاملون مع السيف، و حيث السطوة العدوانيّة، و حيث الاستبداد طوال التأريخ ... و هذا ما حدث فعلاً ... و المهمّ هو الصور الجماليّة و اللغة الفنّيّة الّتي اعتمدتها الخطبة في تقرير الظواهر المذكورة: الفتنة، و الهرج، و تسلّط الظالمين، فيما صاغتها من خلال السخريّة كما لاحظنا، و من ذلك السخريّة المبشّرة (أبشروا بالسيف) و لانغفل أيضاً أنّ

الزهراء عليها السلام في تناصها من القرآن الكريم تعتمد لغة و أسلوب القرآن ذاته حينما يستخدم مثلاً (و بشّرهم بعذاب أليم)، و بذلك تعتمد في تناصها على المادّة و الأسلوب كليهما. المهمّ، أنّ صياغة ذلك من خلال السخريّة أوّلاً ثمّ برموز السيف لأنّه القتل، و بمباشرة الكلام المرتبط بالسطوة العدوانيّة و الهرج و الاستبداد، أي: إنّها عليها السلام قد انتخبت (بالإضافة إلى اللغة الصوريّة) اللغة المباشرة هنا لتنظم الدلالة المذكورة (أي: ظواهر العدوان و الهرج و الاستبداد ... الخ) ثمّ جنحت بعد ذلك إلى العنصر الصوري، فأوضحت ما يترتّب على حدوث القتل و العدوان و الاستبداد و الهرج ... الخ، فقالت (يدع فيئكم زهيداً)، و الفيء هو الظلّ حيث يرمز إلى الراحة، و الزهيد إلى القلّة، و من ثمّ فإنّ المتلقّي بمقدوره أن يستخلص من الصورة المشار إليها مزيداً من الدلالات: بطبيعة الحال.